طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
لائحة القومي العربي

العدد رقم (60) صدر في 1 أيار عام 2019 للميلاد

طلقة تنوير60: مقولة "الربيع العربي" من جديد

الديكتاتورية الرقمية في عصر تدفق المعلومات

كريمة الروبي

منذ أيام قليلة قام موقع (فيس بوك) بحذف منشور لمجرد أن صاحبه تبنى موقفاً رافضاً لدخول الشاعر هشام الجخ للأراضي المحتلة بموافقة صهيونية وهو ما يعتبر تطبيعاً صريحاً، خاصة وأن المركز المستضيف للشاعر هو مركز "روابي تك" الواقع بمدينة روابي الفلسطينية قضاء مدينة رام الله، وقد نشرت صحيفة هآرتس العبرية على لسان مدير المركز "ساري طه" بأنه "يمكن للفلسطينيين أن يكونوا سفراء التكنولوجيا "الإسرائيلية" في العالم، بما أن "إسرائيل" لا تستطيع الوصول الى السوق الاستهلاكي العربي"، ويعترف طه "بأن هنالك أحياناً اتهامات لمثل هذه المشاريع أنها نوعٌ من أنواع التطبيع"، إلا أن إدارة الـ"فيس بوك" اعتبرت هذا الموقف الرافض للتطبيع يحض على الكراهية وقامت بحذفه.

ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة التي تتدخل فيها إدارة موقع "فيس بوك" لتحذف منشورات وتغلق حسابات لا ترضى عن توجهات أصحابها، فيكفي أن تضع صورة للسيد حسن نصر الله أو تتبنى موقفاً معادياً للصهيونية حتى يتم تصنيفك كمحرض على الكراهية، في الوقت الذي تنتشر فيه حسابات المتشددين الذين يجاهرون ويتفاخرون بدعمهم للقتل والإرهاب في سورية وليبيا ومصر، دون أن تتعرض للإغلاق... حتى حين تحاول البحث موضوع ما باستخدام محرك البحث "جوجل" فإنه يقوم – عن عمد- باقتراح مواقع بعينها دون الأخرى.

في بداية انتشار الإنترنت وتكنولوجيا الاتصال الحديثة، كان هناك توقعات كبيرة بأن تسهم في تبادل المعلومات والخبرات والآراء بحرية دون أي قيود، خاصة بعد انتشار مواقع التواصل الاجتماعي بما تتيحه من تواصل وتبادل للآراء والأفكار حول مختلف الموضوعات، ولكن مع الممارسة العملية لاستخدام تلك الطفرة الكبيرة في عالم الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، ظهرت بوجهها الآخر، الذي يتيح تبادل الآراء وانتشارها، ولكن ليست كل الآراء والمعلومات، بل فقط ما يخدم أفكار وتوجهات صنّاع ومُلّاك هذه التكنولوجيا. فكم من مواقع وصفحات تُدار وتنتشر ويذيع صيتها مقابل أخرى يتم إغلاقها والحد من انتشارها عمداً، مما يطرح تساؤلاً عن مدى الحرية المتاحة في عصر تدفق المعلومات، وكيفية استغلال تلك المعلومات لنشر أفكار بعينها دون الأخرى.

طلقة تنوير60: مقولة "الربيع العربي" من جديد

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1 أيار 2019
- الديكتاتورية الرقمية في عصر تدفق المعلومات/ كريمة الروبي
- العرب: ثورة ام انقلاب على الذات؟ / بشار شخاترة
- في الأساس الاقتصادي لأفول الإيديولوجيا في العمل السياسي/ إبراهيم علوش
- تحطيم صنم "السلطان".. رجب طيب أردوغان/ عبدالناصر بدروشي
- الصفحة الثقافية: (غداً نلتقي) دراما الحرب والقهر/ طالب جميل
- اللغة الأم أساس التنمية الشاملة – الجزء الأول/ محمد عبد العظيم
- قصيدة العدد: في رثاء بغداد/ الحنفي الواعظ
- كاريكاتور العدد: فلسطين بلادنا

لمتابعتنا انظر:

لمتابعتنا على فيسبوك، ابحث عن:
لائحة القومي العربي/ الصفحة الرسمية

روابط صديقة:
موقع الصوت العربي الحر
www.freearabvoice.org

راسلنا على:
arab.nationalist.moderator@gmail.com

العدد رقم (60) صدر في 1 أيار عام 2019 للميلاد

ولا شك في أن انتشار الإنترنت قد ساهم في تخفيف سيطرة السلطة المحلية في الدول التي تعاني من تقييد للحريات، إلا أن ذلك يصب مباشرة في صالح السلطة العالمية الأشد خطورة وسطوة، فإذا كانت السلطة المحلية تسعى للسيطرة على الجماهير من أجل البقاء في الحكم طمعاً في النفوذ والمكاسب المادية والمعنوية، فإن السلطة العالمية تستهدف السيطرة على الأوطان والتحكم في مواردها وممراتها الحيوية لخدمة أطماعها التوسعية. تلك السلطة العالمية هي التي تسيطر على تكنولوجيا الاتصال الحديثة وتمارس سيطرتها عليها. ويكفي أن سيطرة السلطة المحلية واضحة للجماهير التي تدرك أنها لا تمارس حريتها وعليها أن تناضل من أجل انتزاعها، فيما سيطرة السلطة العالمية هي ديكتاتورية مقنّعة توهم الجماهير بأنها تمارس حقها في تبني ما يؤمنون به من أفكار، بينما الحقيقة غير ذلك.

وقد فطنت بعض الدول الكبرى التي تمتلك القدرة على المنافسة في هذا المجال، إلى خطورة هذا الوضع الذي يؤدي لزعزعة استقرارها خاصة وأن الإنترنت هو مجال للرقابة والتجسس من قبل الجهات المسيطرة عليه، فقامت بتدشين مواقعها الخاصة فأنشأت كلٌ من روسيا والصين مواقع للتواصل الاجتماعي للهروب من سيطرة ورقابة المواقع المعادية، أما العرب فقد اكتفوا بأن يكونوا مجرد مستهلكين لتكنولوجيا الغرب الذي يظهر عداءه للقضايا العربية، وهو ما يظهر بوضوح من خلال إغلاق الحسابات المناهضة للصهيونية وذلك بالتعاون مع حكومة الاحتلال "الإسرائيلي".

في النهاية من يمتلك التكنولوجيا، لديه سلطة السيطرة عليها، ففي عصر تدفق المعلومات لا يوجد تداول حر لتلك المعلومات كما اعتقد البعض، بل استحدثت السلطة العالمية نوعاً آخر من الديكتاتورية أشد سطوة وخطورة على الأوطان وهي الديكتاتورية الرقمية.

إن حظر وتقييد الخطاب المؤيد للمقاومة هو سياسة معتمدة من قبل إدارة فيسبوك، تتجاوز الحالات الفردية، وهو ما يطرح القضايا التالية:

1) أن فيسبوك، بعد أن بلغ عدد المشاركين فيه عالمياً خلال الربع الرابع من العام 2018 أكثر من مليارين و320 مليون إنسان، بينهم عشرات ملايين المواطنين العرب على الأقل، بات يسيطر على فضاء إعلامي وتفاعلي لا يقل أهمية عن عدة قنوات فضائيات رئيسية معاً، وبالتالي فإن السياسات والقواعد التي يضعها لإدارة ذلك الفضاء تؤثر في صياغة الرأي العام وتياراته بما لا تملكه السياسات الإعلامية لعدة دول عربية مجتمعة.

2) أن فيسبوك بات ينحى باتجاه فرض سقف البترودولار على مفردات الحوار السياسي العربي، معتبراً المقاومة وخطابها من المحظورات، وهو ما سيقود بالضرورة لحظر الخطاب المناهض للصهيونية بعد حين، إذ أنه يتبع سياسة التدرج في فرض مثل هذه المحظورات، مركزاً على معالم رئيسية في هذه المرحلة، مثل حزب الله ورموزه، وقد راح يفعل ذلك، كما فعلته قناة "الجزيرة" من قبل، بعد اطمئنانه لاستئناس عشرات الملايين من المواطنين العرب على الأقل لـ"فضائه المفتوح"!

العدد رقم (60) صدر في 1 آيار عام 2019 للميلاد

3) أن فيسبوك بات يجرم اتجاهات سياسية بعينها، لها عشرات ملايين المؤيدين في الشارع العربي وقواعد جماهيرية وحزبية معتبرة، أي أنه يدخل ضمن اصطفاف معين، ولا يحظر جهات طرفية على الهامش، بل يصادر حق تيار رئيسي في الأمة في التعبير، وهو ما يعبر عن انحيازه الصهيوني طبعاً، لكن الأهم هنا هو استخدام فيسبوك نفسه كأداة لتحقيق أجندة محددة وللهيمنة على الحوار العام، وشبكات التواصل الاجتماعي لا تقل أهمية عن وسائل الإعلام، وهناك من يتنبأ بأنها ستحل محلها في المستقبل.

4) أن فيسبوك يقوم بفرض قوننة تجريم المقاومة وخطابها بطريقة ديكتاتورية، من دون حوار ولا مرجعية تشريعية، ما عدا المرجعية الإدارية المستندة إلى شركة خاصة دولية عملاقة، وهو ما يتجاوز الساحة العربية ليطرح كل مشكلة الديموقراطية في عصر العولمة حيث تسيطر الشركات الكبرى على الاقتصاد والسياسة والثقافة، جزئياً من خلال سيطرتها على وسائل إنتاج الإعلام والثقافة والترفيه، والآن، شبكات التواصل الاجتماعي، فبعيداً عن الديموقراطية المزعومة والفضاء الحر، ثمة تركيز أكبر للسلطات في أيدٍ خفية لا تبعد الصهيونية عنها كثيراً، برضى الجمهور واعتقاده أنه يعيش مرحلة غير مسبوقة من الحرية والانفتاح. وهذا غير حصد المعلومات والإحصائيات وتوظيفها سياسياً وأمنياً، وهو ما أشارت إليه مادة سابقة للدكتور إبراهيم علوش عام 2007 بعنوان (فايس بوك: هل من أجندة خفية؟).

5) أن كل ما سبق يفترض بنا البحث عن طرق للمقاومة في الفضاء الافتراضي، كتتمة للمقاومة في الفضاء الحقيقي، ويبقى الطموح هو تأسيس شبكة تواصل اجتماعي من قبل المقاومة ومحورها، وشبكة تواصل اجتماعي عربية، كما أسست الصين شبكة التواصل ومحرك البحث الخاص بها، وهناك أيضاً شبكة التواصل الاجتماعي الروسية VK... أما في الوقت الحالي، فمن الواضح أن الناشطين والكتاب المناهضين للصهيونية والإمبريالية والرجعية العربية الموجودين في فيسبوك يقبعون في منطقة محتلة خلف خطوط العدو، وقوانين العمل في مثل تلك الشروط ليست غريبة عليهم بأية حال، ولا يصعب نقلها من الفضاء الحقيقي إلى الفضاء الافتراضي.

العرب: ثورة ام انقلاب على الذات؟
قراءة في "الربيع العربي"

بشار شخاترة

تستعيد الحملة العدوانية المسماة بـ"الربيع العربي" زخمها من جديد، وتستهدف أقطاراً عربية جديدة في السودان والجزائر مع تجدد ارتدادات هذه الحملة التدميرية في ليبيا. وعلى نحو مكرر لذات التجربة التي عصفت بالوطن العربي منذ بداية هذا العقد، اشتعلت الحالة في الشارع الجزائري والسوداني بطريقة كرة الثلج المتدحرجة، وفيما تتضخم كرة الثلج جراء اندفاعتها غير آبهة بما حولها أو أمامها مكتفية بالجاذبية والثلج المتراكم حتى تصنع قوتها واندفاعتها المدمرة، هكذا تبدو وبدت من قبلُ حركة الجماهير الغاضبة التي تلقفت أول فرصة مناسبة لمواجهة سلطات حكوماتها.

لن نكشف سراً إذا قلنا إن الثورة في الوطن العربي مشروعةٌ ومبررات انفجارها تكاد تسد عين الشمس، وإن حالة الفساد والترهل المستشري في الأقطار العربية هي الحالة المثالية والأرض الخصبة لنشوء التنظيم الثوري والنظرية الثورية وبالنتيجة انطلاق الثورة، لكنه من الصحيح أيضاً أن نضيف إن ما سمي "ثورة" إبان "الربيع العربي" قد عظّم دوافع الثورة في الواقع العربي وخلق مبررات جديدة لم تكن فيما سبق مطروحةً على المواطن العربي.

لن نسترسل في ذكر نتائج "الربيع العربي" فهي ماثلة للعيان، وحسبنا في ذلك أن التحرر الذي نشدته الجماهير لم يبصر النور، وبقي شعاراً للتغني تردده وسائل إعلام الورثة الجدد للنظام الرسمي العربي الذي أُبعد عن المشهد، فأصبح (الفعل الثوري) أهم من النتيجة، فانتفاضة الجماهير على سبيل المثال في مصر وتونس يتسابق الكل على الإطراء عليها واعتبارها في عداد المآثر الوطنية والأيام المجيدة التي تستحق التخليد،

العدد رقم (60) صدر في 1 أيار عام 2019 للميلاد

ولكن الواقع لم يتغير للأفضل ولم تحصلْ الجماهير على شيء مما خرجت لأجله، بل أن الحساب القومي للنتائج بمعيار المصلحة القومية شهدت الأمور فيه تراجعاً وانتكاسة قومية نظراً للابتعاد عن تحقق أي من الأهداف القومية التي تقرب الأمة العربية من وحدتها وتقدمها.

إذا دخلنا في تقييم خدعة "الربيع العربي" يمكن لنا أن نلج هذا النفق المظلم من بابين: الأول، من باب النتائج، والثاني، من باب الفعل ذاته، لنتوصل إلى زيف (الثورة العربية) المعاصرة التي حملها "الربيع العربي". فالنتائج الواضحة أمامنا تقول إنه أزيحت وجوهٌ سياسية عن المشهد وصعدت وجوهٌ جديدةٌ وجوهر النظام العربي بقي على حاله، لكنه أصبح أكثر توغلاً وتغولاً في استشراء الفساد واتساع دائرة البطالة والفقر، وأما الكوارث الأكبر التي لحقت بالأمة فمنها انفتاح مشيخات الملح والنفط على الكيان الصهيوني بكل وقاحة، والمجاهرة بالمعصية القومية للأمة وثوابتها في ظل انفراط عقد الشارع العربي بالمجمل وانهماكه في سيرك الربيع والثورة المزيفة.

أما التقييم من بوابة (الفعل الثوري) وهو نزول الجماهير إلى الشارع فإنها تحتاج إلى التوقف عندها ملياً، وإن كنا قد تطرقنا لها من هنا وهناك فيما سبق إلا أننا هنا ننفذ إلى التقييم ليس من باب الحكمة بأثر رجعي، فهذه الحكمة مارسناها منذ بداياتها، عندما تكشفت في نظرنا في "لائحة القومي العربي" وبشكلٍ مبكرٍ خيوطَ شباكِ الصيد التي كانت توشك الجماهير أن تقع فيها وحذرنا منها في ليبيا وفي سورية، ولكنه بالقدر الذي اتسمنا فيه بالمسؤولية وبعد النظر في الملف السوري واليمني والليبي، نعترف أننا تقبلنا تلك الموجة بالرضا في مصر وتونس وساهمنا فيها في الأردن إلى حين انكشاف ضحالة الطرح (مع التأكيد أننا مع ضرورة التغيير في هذه الأقطار بالنظر إلى طبيعة الأنظمة فيها)، فإذاً هل من قبيل الصدفة أن تبدأ الحملة في تونس لتشتعل في مصر وتنطلق إلى البحرين (لتواجه الفشل) ومن ثم ليبدأ الصيد الثمين في اليمن وليبيا وسورية؟!

لن نتردد في القول إن الجماهير العربية تعرضت للخديعة، فقد تولت أجهزة الاعلام رسم الصورة أمام الشارع الذي أبدى تحدياً عنيداً لقوى الأمن التي طالما تفننت في قمعه وبسهولة، ولم تكن تحتاج أجهزة السلطات العربية لكثير من الدماء لإخماد أي تمردٍ عليها وكثيراً ما كانت تنتهي الأمور بمجرد التلويح بالعصا واعتقال بعض الناشطين، لكن جاء الأمر مختلفاً هذه المرة وأُخذت أجهزة بن علي في تونس ومبارك في مصر على حين غرة وتفاجأت بالطوفان والتحدي المتزايد كلما ازدادت شراسة أجهزة القمع، فانكشف رأس تلك الأنظمة ولم تجد الغطاء من الجيوش، فأقصى ما باستطاعة قوى الأمن مارسته ولم تقوَ على شيءٍ بعده، ولمزيد من الانكشاف أسقطت الولايات المتحدة ورقة التوت التي بقيت تستر عملاءها.

جماهيرُ تغلي بين فقرها وقهرها لم تكن لترى أو تسمع إلا ألحان الحماسة التي تعزفها "الجزيرة" وأخواتها، فالتضخيم الإعلامي بلغ أشده عندما أُخذت واقعة واحدة، تحدث مثلها في تونس ومصر يومياً حالات مشابهة ومتنوعة ومنذ سنين طويلة دون أن يُلقى لها بالٌ، لكن الإعلامَ قرر هذه المرة أن يخوض معركةً جديدةً، إنها معركة سرقة الثورة الحقيقة التي تأملها الجماهير. إن ما قامت به "الجزيرة" لحساب الموساد والسي أي ايه تلخّص في قطع الطريق على احتمال اندلاع ثورة حقيقية، وهل كانت هناك ثورة في الأفق تلوح بشائرها؟ على الأغلب، الجواب هو: كلا، ولكن بذورها على ما نعتقد كانت قد أنهت فترة كمونها الطبيعي كبذور النبات التي لا تنبت إلا إذا تجاوزت فترة كمونها.

العدد رقم (60) صدر في 1 آيار عام 2019 للميلاد

إن ما شهدناه في "الربيع العربي" يدل دلالة واضحة على أن هناك بذرةً كانت تتهيأ لشق الأرض والصعود لكنها أخذت إلى مستنبتٍ أخر وأُجريَ عليها التهجين فنبتت في غير أوانها وفي غير بيئتها الطبيعية وحملتها سيقان مهجنة، هي كما البذور المطورة وراثياً في مخابر الغرب تصلح للزراعة لمرة واحدة ولا يمكن لبذورها الجديدة أن تنبت نباتاً جديداً لتعودَ وتشتريَ من جديد بذوراً مطورةً وتدفعَ ثمنها، فتلك البذور تصلح للزراعة لمرة واحدة، هكذا حال بذرة "الربيع العربي"، هُجنت فنبتت في غير أوانها وعجزت عن أن تُثمر من جديد، فلو كنا أمام ثورة حقيقية لما انتهت بالعجز الذي وصلت اليه، فماذا تغيّر حتى تغفو الجماهير؟ فالصيدُ ثمينٌ في مصرَ وتونس، وقد حقق أهدافه فيهما وهي تتمثل بفرضٍ آخرَ منطقيٍ وهو قطع الطريق على الجيوش للانقلاب على تلك الأنظمة خشية أن تحمل تلك الانقلابات نَفَساً ثورياً حقيقياً كثورة 23 يوليو، وما المانع؟ فطالما أن الواقعَ السياسيَ مُتردٍ ومستسلمٌ والاقتصاديَ متهاوٍ تبقى مبررات 23 يوليو جديدة ماثلة ويمكن أن تطل برأسها في أي لحظة، لذلك فإن حالة الاحتقان يمكن إفراغها لا بل واستبدالها بامتلاء وثقة بالنفس من جديد لكنه في حقيقته ثقةٌ فارغةٌ من أي مضمونٍ لكنها تعوض الواقع المجتمعي المقهور تاريخياً والذي يشعر بالعجز النفسي واحتقار الذات نتيجة تراكم الظلم والقَهر والتعسف، فجرعة العنف الثوري التي تزيح نظاماً سياسياً عن المشهد وتستبدل به آخر كافيةٌ للاستسلام والارتخاء لهذه النشوة المزيفة. وهذا عين ما حصل فعلاً فالجماهير التي سكتت دهوراً على استبداد نظامي مبارك وبن علي هي ذاتها التي ثارت عليهما وهي ذاتها التي استسلمت لأنظمة بديلة لا تختلف كثيراً عما قبلها وواقع تلك الجماهير لم يدرك أنه لم يفعل شيئاً للآن، سوى تدوير منظومة الاستبداد وإجراء جراحة تجميلية لها مع فيض من الثرثرة في الإعلام الواقعي والافتراضي ظناً من تلك الجماهير أن هذه هي "الحرية" و"الديمقراطية"!

الخديعة الثانية في سياق الربيع العربي تمت عندما ابتلعت جماهير عربية في أقطار أخرى الطعم في سورية وليبيا واليمن لتنتقل الجماهير من مطالبَ تعديل بعض القوانين والدساتير إلى تغيير أنظمة الحكم، فكيف لا وقد فعلها أشقاؤنا قبلنا في مصر وتونس، وما أن تبدأ حالة التجمهر بطلبات بسيطة لتصل إلى أعلى حالات التصعيد الإعلامي والمطلبي، وبشكل غير منطقي، فالملاحظ أن الحالة الجماهيرية التي تحقنها وسائل الاعلام على مدار الساعة بجرعات من الإغراء بالسلطة إلى إثارة مخاوفها من التراجع والعقاب الذي ينتظرها إن هي تراجعت إلى اختلاق القصص وفبركة الأخبار التي تثير غضب الجماهير إلى الاعتداء عليها من قبل أناسٍ مدسوسين لهذه الغاية من قبل أجهزة المخابرات المعادية وإثارة الشائعات، حتى يبدأ الشارع بالغليان الموهوم، ففي مفاهيم الفيزياء يمكن أن يحدث الغليان عند أي درجة حرارة، فالماء على سبيل المثال يغلي في الظروف المعيارية على مقياس الحرارة 100 درجة مئوية ولكن يمكن لهذه الدرجة أن تقل عن ذلك بكثير فيمكن أن يغلي الماء على خمس درجات مئوية مخبرياً، وذلك بإنقاص الضغط الجوي إلى حدود متدنية فيبدأ الماء بالغليان لأن ضغط الماء يصبح أكبر من الضغط الجوي الملامس لسطحه ولا علاقة هنا لدرجة الحرارة لأن الضغط الجوي هو ما يحكم معادلة غليان السوائل عموماً فيصبح ضغط السائل أكبر فيغلي، وهذا ما حدث في الحالة الشعبية العربية في غمرة "الربيع العربي" الكارثية، فقد تم رفع ضغط الشارع وإيهام هذا الشارع أن ضغط السلطات أصبح أضعف وهذا في الواقع صحيحٌ نسبياً بسبب انتشار الإعلام المجتمعي والإعلام الفضائي، لنرى حركة الغليان في الشارع جارفةً، ومما لا شك فيه أن الدعاية الإعلامية الموجهة إلى عقل المواطن العربي أعادت تعريف مفاهيمه نحو السلطة ونحو نفسه بشكلٍ ملفتٍ، مستفيدةً من مبرراتٍ واقعيةٍ وتراكمٍ داخليٍ لديه واستنطاقٍ للعقل الباطن في لاوعيه، فكأنما بتنا نقف على حقيقةِ إنسانٍ مختلفٍ عن الإنسان العربي الذي نعرفه، ولا نقصد هنا أنه إنسانٌ جبانٌ أو منهزمٌ فاقدٌ للثقة بالنفس ولكنها قوانينُ علمِ نفسِ الجماهير التي تحكم هنا، فهنا نخرج من الدائرة الفردية إلى دائرةٍ مختلفةٍ في التقييم والفهم، فنحن ندرس الجماهير في هذا المجال من حيث واقعُها النفسي وهو بالمطلق لا يمثل حصيلة جمع نفسيات أفراد هذا الجمهور، فالجمهور النفسي كأفراد يتسم بالتراجع نتيجة لكونه مفككاً غير متماسك خصوصاً في مواجهة سلطة متماسكة، ويتسم بالعقلانية والتروي وتغلب عليه المخاوف نتيجة إخضاع كل واقعه للحساب والتدقيق بالنظر إلى المجهول الذي ينتظره بسبب عدم وضوح الرؤيا وحاجته للأمن وخوفه من فقدانها، أما الجمهور النفسي كجماعة فإنه يتقلب بين الاندفاع والتراجع والعقلانية والتهور تبعاً لكثافته العددية ولحجم الشحنة النفسية التي يمتلكها وكذلك تبعاً لمقدار المخزون المعرفي والثقافي الجمعي أيضاً والذي غالباً ما يكون متواضعاً بالقياس إلى العدد الكلي خصوصاً في ظل وجود جموع جماهيرية كبيرة، ويضاف إلى ذلك أيضاً شدة تعرضه للأمطار الإعلامية متعددة الوسائل من الفضائيات إلى مواقع التواصل الاجتماعي إلى اليوتيوب وغيرها، حيث أثبتت تلك الوسائل فعاليتها في توجيه الوعي أو خلق وعي جمعي قد لا يكون له أساسٌ فعليٌ سوى قصصٍ هامشيةٍ يبنى عليها روايةٌ تجعل الجمهور يجري خلفها ويصدقها ظناً منه أنها حقيقةٌ كونها تتكرر في وسائل الإعلام

العدد رقم (60) صدر في 1 أيار عام 2019 للميلاد

المختلفة التي جعلت من الإنسان ضحيةً لها تشكله كيفما يحلو لها، فإذا تداخلت معها شخصياتٌ دينيةٌ مشهورةٌ أو سياسيةٌ تتسم بالمصداقية أمام الجمهور أو تم تناول المواضيع تلك على منابر المساجد فإن الجمهور سيجد نفسه محاطاً بحقيقةٍ مزيفةٍ أقوى من أن يكذّبها أو حتى ينقدها، وإن فعل فإن الجمهور نفسه كفيلٌ بمواجهة نفسه، فالجمهور النفسي لا يتقبل الخروج على الرواية التي ملأت عقله لمجرد أنه لم يقوَ على نقدها أو دحضها أو خوفاً من إنكارها، فحالة الاستسلام تلك هي التي توجه سلوك الجماعة، وتتطور لتصبح عقيدة لا تقبل الخروج عليها تحت طائلة التخوين أو حتى العقاب.

إن التسلل إلى لاوعي الجمهور واستخدام الإيحاء وإعطاء الإحكام المطلقة والقاطعة على وقائع معينة تدفع الجمهور أكثر إلى تصديق الرواية الإعلامية التي تستهدفه، وإن ما يسمى بظاهرة العدوى ستغزو البقية الباقية من الجمهور ليصبح جمهوراً يمكن التلاعب فيه وصياغة وعيه وسلوكه، لذلك فإن وحدة الجماهير العربية ووحدة الأمة ذاتها من حيث ظروفها وواقعها توالت فيها الاضطرابات في عدوى غير مسبوقة، فلا نجد مثلاً اندلاع الشيء نفسه في بلادٍ أخرى بالتلازم مع اندلاعها في الوطن العربي، وعلم نفس الجماهير يدرك هذه النقطة، فإن وحدة الجماهير أو ما عرّفه فرويد على أنه القاسم المشترك بين الجمهور النفسي - وهو هنا الوحدة القومية بين جماهير الأمة العربية، ووحدة ظروفها بالمجمل، مع فروق واستثناءات راجعة إلى طبيعة أنظمة الحكم – سهّل السيطرة عليها دون وجود قائد مرئي، استناداً إلى القاسم المشترك فيما بينها، وبغض النظر عن مقدار صحة هذه الفكرة إلا أنها جديرة بالمناقشة وقد وجدت تطبيقاتها في موجة "الربيع العربي".

نقول بثقة إن الثورة العربية التي تستحقها الأمة العربية لتغير واقعها أُجهضت قبل أن تولد، ورسم لها أعداؤها طريقاً تدميرياً هي ثورة على الذات أو بالأحرى انتحار، فالثورة لا تندلع إلا في الجمهوريات أما الملكيات العربية فلا تبصر فيها الثورة النور وكأنها واحةٌ من الحرية والاستقلال، لا شك في أن انتقائية تفاقم ما سمي بالثورات في الجمهوريات وإخفاقها في الملكيات يؤشر بوضوح على اختراق تلك الثورات وعمالتها، فالجزائر تتجدد فيها الكارثة الربيعية والمغرب تجاورها علماً أن الوضع المعيشي الجزائري والاجتماعي أفضل منه في المغرب، لكنها انتقائية من يفبرك ما يسمى "ثورات" لا تستهدف إلا من لا يزال يحتفظ بشيء من استقلالية القرار الوطني، فالجماهير الجزائرية لا تريد أن تدرك اليوم أنها ضحية خطة تصادر وعيها وتوجهاتها وتحدد لها أولوياتها وتدفعها إلى معتركات جديدة في كل أسبوع معتقدة أنها تحقق الانتصارات ولا بد لها من الاستمرار، وأحياناً ثمة مبالغة في الطلبات على قاعدة ما يروى عن ابنة كليب عندما قالت أريد أبي حياً، فالمطالب التي تتسم باللاعقلانية واضحٌ أن طالبها لا يسعى لتحقيقها وإنما لتعجيز الطرف الآخر. المستهدف كان إجهاض القوى الضامنة للوحدة الوطنية في الدول التي حلت بركات ربيع هنري ليفي عليها وهي الجيوش العربية، وأن الدور في الجزائر الآن يستهدف الجيش أكثر.

كل ما سبق لا يمكن أن يعتبر دفاعاً عن أنظمة عميلة للولايات المتحدة أو أنظمة رجعية أو أنه دفاعٌ عن الفساد والاستبداد، ولكن ما هكذا تورد الابل، فلا يصح أن نقوم بالعلاج من دون تحديد الداء ومن دون وجود الطبيب، فـ"الربيع العربي" لم يتقدم أيٌ من عرابيه ليبين لنا الداء الذي تشكو منه بلادنا، لذلك جاء العلاج على النقيض، لأن الوصفة لا تنطبق على المرض، ولأن مجرد تحرك الجماهير لا يعني البتة أنها تسير في طريقها القويم، لأن الجماهير العربية استغلت ووظفت في غير موضعها الصحيح، فالثورة تبقى ضرورة اليوم وغداً لأن مبرراتها لم تزل بعد بل تفاقمت ولأن القوى الثورية لم تنضج بعد ولم تنضج نظريتها، وإن ما حدث انتحارٌ بمعنى الكلمة والواقع يشهد على دقة هذا الطرح فالنهار لا يحتاج لبرهان عليه.

لائحة القومي العربي

العدد رقم (60) صدر في 1 آيار عام 2019 للميلاد

في الأساس الاقتصادي لأفول الإيديولوجيا في العمل السياسي

إبراهيم علوش

يعيش عالمنا المعاصر فقراً في الرؤى الكلية التي تؤطر حركة الطبيعة والمجتمع والاقتصاد والتاريخ في منظومة مفاهيمية وقيمية واحدة، أي في إيديولوجيا، منذ عقود. إذ أن النسخ المختلفة من الإيديولوجيات القومية واليسارية والتحررية، أو ذات الطابع الاجتماعي عموماً، التي تنطلق من مركزية الطبقة أو الوطن أو الأمة كرافعة لتحرير الإنسان من شروط عبوديته التاريخية كإنسان مجرد يتجسد في الإنسان الواقعي الذي يناضل جمعيّاً لإدراك وعي حريته ولممارستها على الأرض، كروح حرةٍ يتكشّف جوهرها في الوعي والعمل والنضال، بالمعنى العالمي-التاريخي الذي وصفه الفيلسوف الألماني هيغل في القرن التاسع عشر في (”محاضرات في فلسفة التاريخ“، المنشورة بعد وفاته بست سنوات في 1837)، نقول إن مثل هذه الرؤيا الفلسفية للتحرر الإنساني عبر النضال الاجتماعي والقومي والأممي راحت تنقلب في العقدين الأخيرين من القرن العشرين وما تلاهما، إلى ضدها الاجتماعي: الإنسان الفرد العملي البراغماتي الذي يحتقر الأيديولوجيا، أي أيديولوجيا، باستثناء ”أيديولوجيا“ حسابات المصلحة المباشرة، أي الإنسان غير العالمي وغير التاريخي الذي تتقمصه روح رجل أو إمرأةِ الأعمال Businessman ذي الحسابات الربحية قصيرة المدى، الذي يعيش وجوده انتهازياً في كنف الـ”هنا والآن“، حتى لو لم يكن رجلَ أو إمرأةَ أعمال، بل حتى لو كان سياسياً ذا واجهة قومية أو يسارية أو وطنية في بعض الأحيان... كما أن مثل هذه الرؤيا الهيغلية للتحرر الإنساني كعمل اجتماعي عالمي-تاريخي راحت تنقلب في كل أنحاء المعمورة، من جهةٍ أخرى، إلى ضدها الفلسفي: الإنسان المستلب الفاقد لأي سيطرة على مصيره الذي يسلّم أمره للأنبياء المزيفين، كهنة التدين السياسي من كل الألوان، أي رجال الأعمال الذين امتهنوا ”التدين“، الذين يعِدونه بالتحرر في عالمٍ آخرَ إن هو أحسن الانقياد لهم في الـ”هنا والآن“...

ومن البديهي أن الحديث أعلاه لا يسقط في التعميم، ولا يتناول كل رجل سياسة قومي أو يساري أو وطني، أو كل رجل دين، وبالأخص، من المؤكد أنه لا يتناول رجال الدين من كل الطوائف الذين يتبنون مواقف تحررية تستند بالضرورة إلى وعي أو وجدان اجتماعي وتاريخي بشقاء الكتلة الاجتماعية الكبرى في هذا العالم الدنيوي، حتى لو وجدوا طريقهم إليها، أو عبروا عنها، من خلال خطاب ديني تحرري على شاكلة ”لاهوت التحرر“ Liberation Theology في أمريكا اللاتينية، أو مثل النزعات الصوفية عند أئمة التحرر الوطني في بلادنا مثل عبدالقادر الجزائري ومحمد بن أحمد المهدي في السودان وعبدالكريم الخطابي وعمر المختار وعزالدين القسام وفرحان السعدي في فلسطين.

في الحالتين، حالة تكريس مشروعية حسابات المصلحة الفردية وأولويتها كـ”وعيٍ عامٍ“، وحالة تغييب العقل في دياجير ”تجار الدين“، فإن الوعي الاجتماعي، بكل تلاوينه، هو الذي يدفع الثمن، ومعه الرؤى الكلية التي تنظّم ذلك الوعي في منظومات إيديولوجية تصبح بناءً على هذين المنظورين، المنظور الفردي البراغماتي الضيق أو منظور ”التدين السياسي“ الموظف في خدمة أشد القوى رجعيةً، إما عقائد ”شمولية“ تقيد حرية الفرد عند الليبراليين أو ”كفراً“ صريحاً عند التكفيريين، وإذا كان تطور التاريخ عند هيغل يعبر عن تجلي ”الروح المطلق“، أو قدرة الله عز وجل، فيما يحدث على الأرض، من خلال قوانين لا يمكن إدراكها والتعامل معها إلا بالعقل النقدي الحر، هذه الروح **Geist**

العدد رقم (60) صدر في 1 أيار عام 2019 للميلاد

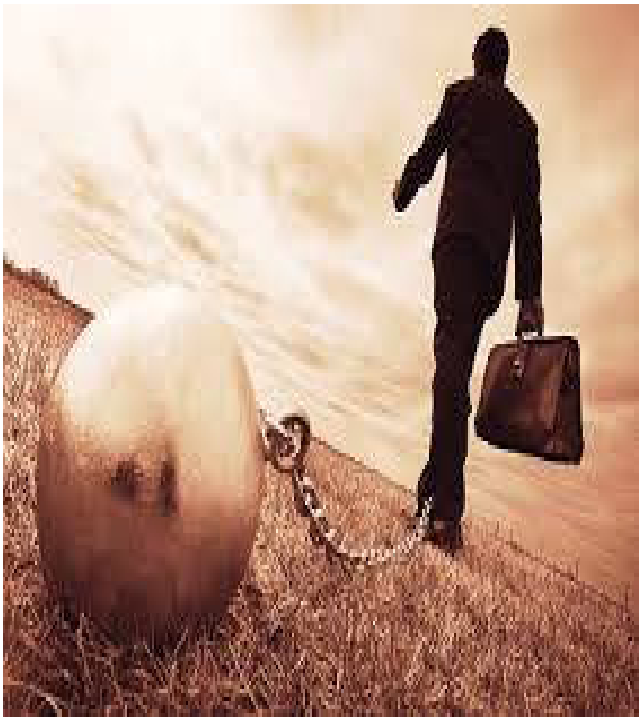

التي تحاكي "ثقافة الشعب" التي تعيد إنتاج ذاتها لاستيعاب التغييرات الاجتماعية، وإذا كانت فلسفة هيغل في زمانها هي فلسفة التحرر التي تعبر عن الطبقة البرجوازية الصاعدة آنذاك في ألمانيا في طورها التقدمي، فإن ما حدث بعد حوالي مئتي عام من هيغل هو الانقضاض على "العقل العام"، وعلى العقل عموماً، وعلى الوعي الاجتماعي.

وليكن واضحاً أن الاستشهاد بهيغل كنقطة مرجعية لفهم الانقلاب على "العقل العام"، والوعي الاجتماعي العالمي-التاريخي، إنما هو أحد المداخل المنطقية لفهم مثل ذلك الانقلاب، وليس بأية حال الطريقة الوحيدة لفهمه، كما أنه لا يغيّر من حقيقة كون هيغل مغرقاً في المركزية الأوروبية، والتحيز الحضاري الغربي، مثل كثيرٍ من مفكري القرن التاسع عشر الغربيين، وأنه كان قومياً ألمانياً في جوهره، بالرغم من كل جهوده الفلسفية لتأسيس وعيٍ عالميٍ-تاريخي عابر للقوميات، كما نلاحظ من مقولاته في محاضراته عن فلسفة التاريخ ذاتها، كما في قوله: "يسافر تاريخ العالم من الشرق إلى الغرب، لأن أوروبا هي النهاية المطلقة للتاريخ، كما أن آسيا هي بدايته"(1)، وكما في قوله: "الشرقيون لا يعرفون أن الروح أو الإنسان هو حر بحد ذاته، ولأنهم لا يعرفون ذلك، فإنهم ليسوا بحد ذاتهم أحراراً. إنهم يعرفون أن واحداً فقط هو الحر... وقد استيقظ وعي الحرية أولاً لدى الإغريق، فكانوا بحسب ذلك أحراراً، لكنهم، كالرومان، عرفوا بأن البعض، وليس كل الناس، كانوا بحد ذاتهم أحراراً... وكانت الأمم الألمانية، مع صعود المسيحية، أول من أدرك أن كل الناس أحرار بالطبيعة، وبأن حرية الروح هي جوهرها"(2).

التجاوز إذاً من واحد إلى بعض إلى كل، هو المسار العام عند هيغل لوعي الحرية، وبناءً على مقياسه ذاته، وبالتناقض مع استنتاجه بأن الشرقيين ليسوا أحراراً لأنهم لا يدركون بأنهم ولدوا أحراراً، نذكّر بمقولة "كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!"، سواءٌ كان عمر بن الخطاب هو قائلها أم أنها شذرةٌ مضيئةٌ من تراثنا، وهو ما يدلل على أن وعي الحرية الطبيعية كان تياراً موجوداً عندنا قبل أن يولد هيغل بأكثر من ألفٍ ومئتي عام، ولعل كل سيرة عنترة بن شداد العبسي نصبٌ شعريٌ لحرية الإنسان الطبيعية ووعينا بها كأحد التيارات الرئيسية في المخيال الشعبي العربي حتى لو وجدت تيارات أخرى تناقضها في تراثنا هي أيضاً شكلٌ أخر من وحدة وصراع الأضداد كمحرك للتاريخ... وإذا كان "وعي الحرية" هو حيزٌ غربيٌ بحسب هيغل، يجب أن يبقى كذلك لتبرير الاستعمار، فإن الإصرار على اشتمال ذلك الحيز على شعوب "الشرق" و"الجنوب" أيضاً يصبح أساساً هيغلياً متيناً لحركات التحرر القومي.

لكن تحيز هيغل الحضاري ليس موضوعنا هنا، بل أفول الرؤى الأيديولوجية الكلية اجتماعية الطابع التي يعتبر هيغل أحد أبرز روادها، وهو الأفول الذي شهدته بلدان الغرب أيضاً خلال العقود الأخيرة، لتتراجع معها شعبية الأحزاب العقائدية ونفوذها السياسي، لا سيما اليسارية منها، ولتختفي الشخصيات التاريخية المعبرة عن قضايا كبرى عن مسرح الأحداث، ولتتزايد ظاهرة شبكات "البعد والشأن الواحد" المعبرة عن الهوية العِرقية أو المصلحة قصيرة المدى لجماعة ضيقة ما، لأن جموع البراغماتيين باتت تريد شيئاً عملياً مباشراً هنا والآن، لا "مجرد شعارات وكلام"...!

على المقلب الآخر، ازداد وزن التدين السياسي في الغرب بشدة، لا سيما في صفوف العمال غير المهرة والفئات الاجتماعية المهمشة بفعل العولمة، بعد شعورهم بفقدان السيطرة على مصيرهم، كما في حالة المسيحية المتصهينة أحد الروافع الانتخابية للحزب الجمهوري في الولايات المتحدة، كما صعد في الغرب نجم اليمين المتطرف على أجنحة التعصب القومي والعداء للمهاجرين والأجانب في مواجهة عولمة عابرة للقوميات تديرها نخبٌ ازدادت ليبراليةً وبراغماتيةً وتجرداً من انتمائها القومي في الأحزاب التقليدية اليمينية واليسارية في الغرب على حدٍ سواء، أي أن

العدد رقم (60) صدر في 1 آيار عام 2019 للميلاد

السردية الفردية الليبرالية المعولمة لم تنتج شعوراً اجتماعياً، بل أنتجت ردة، بعضها ديني، بعضها قومي شوفيني، تحن إلى مرحلة ما قبل العولمة، وفي الحالتين، نعود لثنائية الحس الفردي والتدين السياسي بديلاً للحس الاجتماعي التقدمي.

وما الصراع الدائر في الولايات المتحدة اليوم بين ترامب وأنصاره من جهة والدولة العميقة من جهةٍ أخرى، وفي بريطانيا، بين دعاة البقاء في الاتحاد الأوروبي والخروج منه، وفي بلدان أوروبا الغربية عموماً، بين النخب الليبرالية المعولمة (التي اختفت فيها الفروق عملياً بين اليمين واليسار) وبين اليمين المتطرف، إلا انعكاسٌ في أحد مظاهره لتجاوز الصراع الأيديولوجي التقليدي بين الرؤى العقائدية الكبرى لليمين واليسار باتجاه صراعٍ آخر حل محله هو صراع الحس البراغماتي الفردي المعولم، الذي رفع لواء الليبرالية المنبتّة عن أي انتماء قومي أو اجتماعي، استناداً إلى مقولة حرية الفرد ومرجعيته بديلاً لأي مرجعية اجتماعية، مع مرجعية "الهوية البيضاء" التي غالباً ما تقترن بالتدين السياسي المسيحي الموظف سياسياً في الغرب لمصلحة قوى الارتداد عن مشروع العولمة من قبل المتضررين منها، من الفئات الشعبية المتضررة من انحلال دولة الرفاه الاجتماعي في الغرب، إلى شرائح البرجوازية الصناعية المتضررة من تخلخل جدران الحماية الجمركية حول سوقها القومية والمتضررة فضلاً عن ذلك من هيمنة رأس المال المالي الدولي والمضارب وإخضاعة الاقتصاد القومي دورياً لحالة شديدة من عدم الاستقرار.

لكن الفقر في الرؤى الأيديولوجية الكلية، في مرحلة العولمة وهيمنة رأس المال الربوي والمضارب عبر الحدود، هو اقتصادياً نتاج صيرورة طبيعية أعمق للرأسمالية ابتدأت مع بدء الثورة الصناعية ذاتها. فإذا كان آدم سميث في كتاب "ثروة الأمم" (1776) قد اعتبر أن الثورة الصناعية هي نتاج تقسيم العمل، أي تقسيم المهمات الإنتاجية إلى وظائف روتينية أكثر فأكثر بساطةً يتخصص العمال كلٌ في موقعه الإنتاجي بالتركيز على واحدة منها، مما يقلل الوقت الضائع في الانتقال من مهمة إلى أخرى، ويحولها إلى "طبيعة ثانية" يمكن القيام بها كتتمة للآلة من دون تفكير تقريباً، فإن اتساع حجم الاقتصاد الرأسمالي كماً ونوعاً، أكثر من أي وقت مضى في التاريخ البشري، دوماً على قاعدة التخصص وتقسيم العمل، كان يعادله اتساع التخصص وتقسيم العمل في مجال إنتاج العلوم، وكانت كل خطوة تجري لتوسيع الإنتاج نحو فروعٍ صناعية جديدة، ولتطوير الصناعة والزراعة والتجارة والمواصلات والإدارة إلخ... يقابلها نشوء فروع تخصصٍ علمي جديدة، ثم فروع ضمن الفروع، حتى بات التخصص مفرطاً يعنى بأدق التفاصيل والجزئيات، ثم لا يلبث أن يصبح عاماً تتفرع منه تخصصات أكثر دقةً.

واليوم بات العمل الفكري ذاته خاضعاً لتقسيم العمل من أجل رفع الإنتاجية. فلنأخذ مثالاً من مجال القانون بحسب مقالة في مجلة Harvard Business Review عدد تموز-آب 2011 تروج للفوائد الإنتاجية الرائعة لعصر "التخصص المفرط" Hyperspecialization كما تسميه:

"فلنفكر كم يضيّع الشركاء الجدد المبتدئون في شركات المحاماة من وقتٍ ثمينٍ في إعداد قضاياهم وهم يبحثون عن السوابق القانونية ذاتها في شركات المحاماة المختلفة عبر الولايات المتحدة. قارن ذلك بالتوفير الذي يمكن أن تحققه شركة المحاماة لو استعانت بدلاً عن ذلك بشبكة خبراء يتخصص كلٌ منهم في جانبٍ ضيق من القانون فحسب. فشركة المحاماة قد تحتاج فجأةً لمعرفة القواعد التفصيلية والسوابق المرتبطة بتسجيل مواعيد نهائيةً لقضايا مكافحة الاحتكار في الولايات المتحدة، أو قوانين الأدلة في محاكمات الجرائم في ولاية تكساس. ولذلك بإمكان الشركة أن تدفع للمتخصص بإفراط **hyperspecialist** خمسة أضعاف الأجر الذي تدفعه في الساعة لشريك جديد مبتدئ، لتنجح رغم ذلك بتخفيض تكاليفها"(3).

وتتحدث المقالة ذاتها عن البرمجيات، وكيف بات يقوم عشرات المبرمجين أحياناً بوضع جزءٍ متخصص من البرنامج الحاسوبي كلٌ بحسب تخصصه، وكيف يمكن لشركات البرمجة أن تنتج برامج جديدة من خلال تقسيمها إلى أجزاء، تطرحها على شكل مباريات للمبرمجين، مباراة لمن يطرح أفضل فكرة عامة لبرنامج حاسوبي جديد، مقابل جائزة طبعاً لا ينالها إلا الرابح، ثم مباراة أخرى لوضع وثيقة تحدد المتطلبات التقنية فقط لتصميم ذلك البرنامج، ثم مباراة ثالثة لوضع التصميم الهندسي للبرنامج وأجزائه ووصلاته، ثم مباراة رابعة لكتابة كل جزء من تلك الأجزاء، ثم مباراة خامسة لوضع تلك الأجزاء معاً، ثم مباراة سادسة لإيجاد الثغرات في ذلك البرنامج ومعالجتها، لنجد أن التكلفة العامة لإنتاج البرنامج، بما أن الدفع لا يكون إلا على القطعة للرابحين في المباريات، من توظيف مبرمجين دائمين في شركة البرمجيات لكتابة تلك البرامج الحاسوبية.

العدد رقم (60) صدر في 1 أيار عام 2019 للميلاد

في مجال علم الاقتصاد مثلاً، بات من المألوف أن ترى متخصصاً في "اقتصاديات العمل" أو "اقتصاديات الطاقة" أو "اقتصاديات الصحة" أو "اقتصاديات الإعلام" أو "اقتصاديات الإدارة" إلخ... التي يُنبت كلٌ منها من ثم فروعاً أكثر تخصصاً بدورها تجد من يقضي مهنته الأكاديمية أو البحثية حصرياً في دراستها دون غيرها، الغاز مثلاً وليس موارد الطاقة الأخرى، أو اقتصاديات إنتاج الدواء وليس مجالات الصحة الأخرى، جدوى الإنفاق على الإعلانات، إلخ... وإذا كان ذلك قد ساعد على التقدم العلمي والأبحاث بوتائر أسرع بكثير، فإن شرذمة الفرع العلمي الواحد إلى عشرات الفروع، والحبل على الجرار، خلق أزمة رؤىً، وفقراً حقيقياً في إدراك القوانين العامة للكون والطبيعة والمجتمع، التي تربط الأجزاء في كلٍ واحد، وهي القوانين العامة التي انطلقت ردة ما بعد الحداثة لنفيها و"تفكيكها" باعتبارها سرديات "تخلط ما بين الذات والموضوع"، ليصبح كل سياق في كل حالة قصة قائمة بذاتها لها قوانينها الخاصة، لتكرس بذلك عملياً فكرة اللامعنى، أو غياب المعنى العام، ووجود معنىً خاصٍ في كل حالة خاصة، من دون وجود أي رابط ضروري بين تلك المعاني.

وتحت عنوان التخصص والتركيز على الشأن التقني، لم يعد لدى معظم الاقتصاديين رؤيا اقتصادية عامة، أو حتى وجهة نظر عامة حول القطاع المحدد الذي يدرسه أيٌ منهم، أو حتى شعورٌ بضرورة وجود مثل تلك الرؤى العامة التي تعيد ربط ما تم فرطه لأغراض تشريحية علمية، وليس لأن تلك الأجزاء، التي تمت تجزئتها من قبل العلماء، وجدت هكذا في الطبيعة والمجتمع والكون... لا بل أن طرح الرؤى ووجهات النظر العامة بات يعتبر نوعاً من السفسطة والإنشاء الفارغ، يتم فيه التعويض عن الافتقار إلى أدوات التحليل الرياضي والإحصائي والبرمجي التي يفترض أن يمتلكها الاقتصادي لمعالجة ظواهر تخصصه الدقيق، وكان علماء الاقتصاد الغربيون قد ألغوا منذ أمدٍ بعيد تسمية "الاقتصاد السياسي"، باعتبار أن علم السياسة حيز الدولة، والدولة لا يجوز أن تتدخل بالاقتصاد!

على الصعيد المنهجي ترافق ذلك مع رؤى اقتصادية أكثر وأكثر تقنية وتخصصاً، وقد أفاد ذلك في جعل الشأن الاقتصادي حيزاً حصرياً للمتخصصين، وفي التعامل مع أي طرح اقتصادي لا ينطلق من خرم إبرة الأدوات التحليلية المتخصصة كنوع من الهراء الذي يجدر طرحه في سلة المهملات، وهو ما يتيح تجاهل اعتراضات المتأثرين بالسياسات الاقتصادية بأريحية (لمن يتساءل عن سبب تجاهل المتخصصين لتلك الاعتراضات، فالتحليل العلمي الموضوعي لا يعرف "المشاعر" و"الأحكام القيمية"!).

انتقل منهج علم الاقتصاد، من جهةٍ أخرى، منذ الانقلاب على نظريات كينز الرأسمالية، ولكن الاجتماعية الطابع، من قبل الاقتصاديين الكلاسيكيين الجدد (أي النيوكلاسيكيين Neoclassical economists، الساعين لإعادة فرض هيبة الاقتصاديين الكلاسيكيين القدامى مثل أدم سميث ومالتوس وديفيد ريكاردو وجون ستيوارت مِل ما قبل كينز) في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات، إلى إحلال ما هو جزئي محل ما هو كلي، ولذلك كانت أحد عناوين الردة الكلاسيكية الجديدة (النيوكلاسيكية) على كينز في علم الاقتصاد الكلي إعادة تأسيسه من جديد على أسس الاقتصاد الجزئي (علم دراسة المنشأة، المستهلك، السوق)، بدلاً من الانطلاق من هيكل الاقتصاد وبنيته وعلاقاته ودورته وتاريخه لفهم المنشأة والمستهلك والسوق. وفي مثل هذا الجو، فإن مجرد الحديث عن "اقتصاد سياسي" يصبح نوعاً من الهرطقة التي تستدعي الاستغراب في حالة أخذه بجدية.

فإذا افترضنا مثلاً أن الاقتصاد الكلي هو علم الاجتماع، وأن الاقتصاد الجزئي هو علم النفس، فإن التتمة

من دون حساب للتفاعلات الثقافية أو الاجتماعية التي يمكن أن تنشأ بين تلك الأجزاء، ولهذا فإن علم الاقتصاد الكلي السليم بحسب الاقتصاديين النيوكلاسيكيين هو ذاك الذي يقوم على أسس علم الاقتصاد الجزئي فحسب.

في مرحلة الحداثة، في المرحلة التقدمية للرأسمالية، كان انفجار العلوم والإنتاج مترابطاً، وكان كلا الانفجارين مترابطاً مع التخصص وتقسيم العمل، لكن في تلك المرحلة التقدمية أيضاً تميزت الرأسمالية بأنها كانت تحارب الإقطاع وبقاياه في البنية الفوقية، ولذلك كانت تتمتع آنذاك بصفتين أساسيتين تقدميتين: 1) الحس الاجتماعي، 2) الإيمان بسلطان العقل، تماماً كما أسس هيغل وغيره من الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين، وبالتالي فإن عملية التخصص، أو التفكيك لأغراض التشريح العلمي، أي عملية التحليل analysis، ظلت متلازمة مع عملية تركيب synthesis، وقد تجلى ذلك في القرن التاسع عشر بازدهار الفلسفة والفكر عموماً، وبمحاولة تأسيس أيديولوجيا علمية، تستفيد من منتجات العلوم الطبيعية والاجتماعية، على يد كارل ماركس وفريدريك إنجلز، كما تترافق كل نهضة تقدمية في التاريخ مع صعود الفكر والفلسفة، وكما كان الفكر الذي أنتجه علماء وفلاسفة العصر العباسي مثل الفارابي وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم كلياً رؤيوياً موسوعياً مستنداً إلى علوم شتى يعكس بذاته حالة نهضة في المجتمع والاقتصاد في القرنين الميلاديين العاشر والحادي عشر، وقد بلغت تلك الحالة الكلية الرؤيوية ذروتها في المشروع الموسوعي لإخوان الصفا.

صحيحٌ أن حجم العلوم في القرون الوسطى كان أقل بكثير مما هو عليه اليوم، وبالتالي فإن الإحاطة به أصعب بكثير، لا بل أن الإنتاج العلمي باللغات العالمية في علمٍ واحدٍ، في الاقتصاد أو الفيزياء مثلاً، بات أوسع بكثير من أن يحيط به مفكرٌ أو عالمٌ بمفرده، ناهيك عن الإنتاج العلمي في علومٍ شتى، لا سيما التلاحق السريع في تكنولوجيا المعلومات والبرمجيات، إلا أن جزءاً كبيراً من ذلك الإنتاج يتناول جزئيات تفصيلية متخصصة، كما أن تطور العلم والتكنولوجيا ذاته بات يتيح الإحاطة بذلك الإنتاج بطريقة أسرع وأقل جهداً، فمحركات البحث تحتوي معاجم وموسوعات تتيح الوصول للمعلومات والتلخيصات بصورة أسرع، وكما حلت الآلة محل العمل اليدوي، باتت البرمجيات تحل تدريجياً محل العمل الفكري، وصار الإنتاج الفكري ذاته اجتماعي الطابع، تتعاون فيه فرق عمل، وبالتالي فلم يعد مطلوباً من الساعين لفهم القوانين الكلية التي تتحكم بحركة الكون والطبيعة والمجتمع والتاريخ الإحاطة بكل تفصيل بحثي صغير، إنما السعي للإمساك بأعم الأنماط وأهم المفاصل التي تترابط عبرها الظواهر الاجتماعية والطبيعية.

عالم الإنتاج ذاته تبدل كثيراً عما كان عليه في مستهل القرن العشرين مثلاً، وقد حل محل "خط التجميع" assembly line في المصانع التي تنتج منتجات متماثلة الصفات على نطاق واسع التنويع في صفات المنتج الواحد، مثلاً سيارة فورد الأولى كانت تأتي كلها باللون الأسود، وصفاتها نسخة طبق الأصل من بعضها، أما اليوم فإن المنتجات تأخذ بعين الاعتبار أذواق المستهلكين المختلفين، وبالتالي فإن الإنتاج ليس متماثلاً طبق الأصل، ويتم على دفعات صغيرة، بدلاً من دفعة واحدة كبيرة.

ويركز الإنتاج المعاصر على اقتصاديات النوع economies of scope، أي التوفير الناتج عن إنتاج منتوج أخر بالاستفادة من البنية التحتية للمنتج الأول، مثلاً، مصنع إنتاج الأحذية الذي يستفيد من بقايا الجلود لديه لافتتاح فرع لإنتاج الحقائب النسائية يكلفه أقل بكثير من افتتاح مصنع حقائب نسائية من الصفر، واقتصاديات النوع باتت تحلُ تدريجياً محل اقتصاديات الحجم economies of scale، أي التوفير في تكلفة الوحدة الواحدة من السلعة الناتجة عن زيادة حجم الإنتاج الكلي، مثلاً، التكلفة الوسطية لطن الحديد والصلب الأول أعلى بكثير من تكلفة الطن العاشر.

كما يتميز الإنتاج المعاصر في اعتماده على المنتجات والمهارات المتخصصة، وفي اعتماد العمل الإنتاجي على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات والعمل الرقمي digital labor وهو العمل المنتج مقابل أجر أو ربح عبر منصات التواصل الاجتماعي، للترويج مثلاً، كما يتميز الاقتصاد الحديث بالتركيز على فئات المستهلكين، بحسب الفئات العمرية والجغرافية والجندرية والمهنية إلخ... بدلاً من التركيز على الطبقة الاجتماعية، ويتميز الاقتصاد المعاصر بهيمنة شريحة العاملين في قطاع الخدمات، وعمال الياقات البيضاء، على العمال الصناعيين والزراعيين، في معظم الاقتصادات الصناعية المتقدمة، جزئياً بسبب حلول الآلة والبرامج الحاسوبية محل العمال والموظفين، بدلاً من الطبقة العاملة الصناعية، أي أن فكرة البروليتاريا ذاتها، كطبقة العمال الصناعيين الذين لا يملكون إلا قوة عملهم، باتت بحاجة لمراجعة جدية، كذلك تتميز الطبقة العاملة الجديدة، غير الصناعية، وغير المترابطة في طبقة اجتماعية واضحة المعالم، بارتفاع نسبة النساء فيها.(4)

العدد رقم (60) صدر في 1 أيار عام 2019 للميلاد

لا شك في أن معظم العمال في الدول الصناعية المتقدمة لم يعودوا يكدحون في مصانع كبرى، وأن امتلاك كثيرٍ منهم لمهارات متخصصة أخرجهم من حيز البروليتاريا، كما أن نسبة مساهمة الصناعة في الناتج المحلي الإجمالي انخفضت، فضلاً عن الارتفاع التدريجي في نسبة العاملين في قطاع التجارة والخدمات، والمعلوماتية، مما خلق لوحة اجتماعية أكثر تذرراً وتنوعاً بكثير مما كانت عليه الحال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وأن ذلك انعكس على أنماط الوعي الاجتماعي وتماثلها، فالرأسمالية لم تنتقل إلى مرحلة ما فوق قومية فحسب، ربما تصح تسميتها بالإمبريالية العليا Ultra-imperialism بحسب تعبير كاوتسكي الذي أدانه لينين بشدة، بل انتقلت للاعتماد على اقتصاد المعرفة وباتت تسعى لتحويل العمل برمته، لا سيما الفكري منه، إلى تعاقد بالقطعة، وبالتالي تحويل العامل إلى رجل أعمال.

ولو أخذنا الولايات المتحدة في نهاية عام 2018 مثلاً لوجدنا أن عدد العمال والموظفين بلغ 155،761 مليون عامل وموظف، بلغ عدد العاملين في الصناعة بينهم 15،56 مليون عامل وموظف، أي أقل من عشرة بالمئة بقليل، ولو أضفنا لعمال الصناعة العاملين بالزراعة والمناجم والبناء والمواصلات، لبلغوا معاً أقل من 25% من مجموع القوة العاملة، أي أقل من الربع(5). أما الـ75% الباقون فيعملون في التجارة والخدمات والمعلوماتية وما شابه، منهم كثيرون بمفردهم، اعتماداً على مهارات خاصة، مع العلم أن حوالي نصف العمال والموظفين في القطاع الخاص يعملون في مؤسسات صغيرة الحجم(6).

كل ما سبق يدفع بالطبع باتجاه تذرر الوعي والتماسك الاجتماعي والطبقي، لكن الرأسمالية وصلت إلى مأزق علمي يتمثل بعدم قدرة علومها وفكرها، من شدة تخصصها، على تقديم حلول كلية رؤيوية، ولذلك فإن الحاجة للتركيب والتجميع، أي للمفاهيم الكلية، باتت أكبر من أي وقتٍ مضى، وإذا كان التشديد اليوم على التفصيل والتخصص والبعد التقني، فإن مثل تلك النزعة لوحدها تؤدي إلى نشوء جهلة بين المتعلمين، يملكون مهارة أو علماً متخصصاً في مجالٍ دقيقٍ ما، ويفكرون ويتصرفون كالجهلة ما عدا ذلك، ليصبحوا بذلك عرضةً للاستقطاب من قبل التدين السياسي، بمقدارٍ ما يشعرون بالقلق على مصيرهم، أو ليتصرفوا كرجال أعمال انتهازيين تافهين ضيقي الأفق حتى يتعرضوا لصدمة ما فيهتدون إلى أقرب "تاجر دين" ليكفروا عن ذنوبهم. والعبرة أن مسألة التحرر الاجتماعي والقومي لا تزال مطروحة على الطاولة بشدة، لا بل أنها مطروحة بشدة أكبر من أي وقتٍ مضى، لا سيما في جنوب الكرة الأرضية وشرقها، وأنها بحاجة لرؤى كلية رؤيوية، ولبرامج سياسية حقيقية لا تغرق في الترقيع تحت عنوان التركيز على ما هو عملي وملموس. ومن البديهي أن وجود قوانين وصفات موضعية أو خاصة في كل حالة على حدة هو أمر من العبث نفيه، لكن العبرة بإدراك الروابط بين الأجزاء، بالتفاعلات، وقوانينها، وفي هذا بالضبط يكمن كعب أخيل الرأسمالية المعاصرة.

الهوامش:

(1) هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ، 1975 ، New York, NY: Cambridge University Press، الصفحة 197.
(2) هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ، 1975 ، New York, NY: Cambridge University Press، الصفحة 54.
(3) https://hbr.org/2011/07/the-big-idea-the-age-of-hyperspecialization
(4) Hall, S. (October 1988) "Brave new world." Marxism Today, p. 24.
(5) https://www.bls.gov/cps/cpsaat18.htm
(6) https://www.sba.gov/sites/default/files/advocacy/2018-Small-Business-Profiles-US.pdf

لائحة القومي العربي

العدد رقم (60) صدر في 1 آيار عام 2019 للميلاد

تحطيم صنم "السلطان".. رجب طيب أردوغان

عبدالناصر بدروشي

في زمن الردة والجزر الثوري، مثل الذي نعيشه اليوم، تتراجع نسبة الوعي في صفوف أبناء أمتنا العربية خاصة لدى الأوساط الشبابية بفعل التصحر الثقافي والأيديولوجي الذي خلقته الأنظمة العربية، فانتشر الجهل والزيف والدجل، ومع سيطرة أعداء أمتنا على منابر المساجد ووسائل الإعلام ومناهج التعليم تصبح مهمّة تنوير شباب الأمة ليست بالأمر الهيّن.

نجحت تيارات الإسلام السياسي خلال السنوات الأخيرة، من خلال سيطرتها على منابر المساجد والتمويلات السخية التي تحظى بها والدعم والتمكين الإمبريالي، في تلميع صورة حقبة "الاحتلال العثماني" إلى حدٍ ما، كما لعبت الدراما والمسلسلات دوراً كبيراً في إعادة تسويق الدور التركي وتعزيز الحنين لحقبة زمنية مظلمة.

من يطّلع على التاريخ ويقرأ قليلاً، سيدرك جيداً أن كل ما يروجه المتأسلمون كذبٌ ودجل، ومن يطّلع على الحقائق التاريخية الدامغة سيُذهَل وسيعلم كم أن خطاب الإخونج أجوف وفارغٌ، وبعيداً عن البحث والنبش في المراجع وكتب التاريخ، يمكن للباحث عن الحقيقة، متى تسلّح بفطرته السليمة، أن يرى الحقيقة بعينه المجردة مثلما يرى الشمس في رابعة النهار.

لمعرفة بعض الحقائق الدامغة التي لا يحتاج الشاب العربي للغوص كثيراً في كتب التاريخ حتى يدركها، نقتبس من مقالة بعنوان "الاحتلال العثماني والحنين للتخلف" نشرتها "الوحدة" الأردنية للكاتب والمفكر القومي الدكتور إبراهيم علوش بتاريخ 14/01/2008:

" وهذا، مع أن العثمانيين لم يتركوا أثراً حضارياً واحداً في أيٍ من البلاد التي احتلوها، وكانوا دوماً يتركون البلاد التي يطئونها أسوأ حالاً مما استلموها، فكانوا بذلك أكثر احتلال متخلف في تاريخ الاحتلالات، بعد التتر والمغول. ولم يُعرف عنهم إنجازٌ واحدٌ في العلوم أو الفنون أو الآداب أو العمارة طوال فترة حكمهم (وليس فقط في نهايته)، على عكس التراث العربي-الإسلامي الغني بمثل هذه الإنجازات.

وعندما اجتاحت جحافل العثمانيين أرض العرب، لم يكن ثمة فارق حضاري كبير بين العرب وأوروبا، بالرغم من الضعف الكبير الذي كان يعتور الأمة العربية. وكانت القبائل التركية تفتقد لأبسط أسس التقدم الحضاري التي كان العرب وغيرهم من الأقوام الإسلامية قد خبروها وطوروها على مدى ألف عام تقريباً قبل العثمانيين. ويمكن أن نلحظ أن الدول الأوروبية الشرقية التي حكمها العثمانيون تتأخر خلف أوروبا الغربية والوسطى بالنسبة نفسها التي رزحت فيها تحت التخلف العثماني. والأهم هو أن تعميق التعفن الحضاري وإعادة إنتاجه في الظل العثماني كان عامل الضعف الأهم الذي سمح للاستعمار الأوروبي أن يستخدم تقدمه العلمي والتكنولوجي والاقتصادي والثقافي ليخترق الوطن العربي كما تخترق سكينٌ حادةٌ خرقةً بالية. فالعثمانيون لم يحافظوا على سيادة الأمة إزاء الاستعمار الأوروبي كما يبدو في الظاهر، بل هيئوا أفضل الظروف لهيمنة الاستعمار الأوروبي من

العدد رقم (60) صدر في 1 أيار عام 2019 للميلاد

خلال إنتاج كل عوامل الضعف الداخلي، الحضاري والاجتماعي، التي تنزع من الأمم عناصر قوتها وتجعلها أعجز من أن تتمكن من المقاومة.“ (انتهى الاقتباس)
رابط المقالة: http://www.safsaf.org/01-2008art/drIAloush/14-01-2008.htm

تهدف هذه المقالة أساساً إلى كشف النقاب عن حقيقة أردوغان ووضعه في الميزان، ولكن الذين يروجون لأردوغان ويقدمونه في صورة بطل إسلامي سيعيد مجد الخلافة العثمانية وسيعيد للعرب ”عزهم“ يرتكزون في زعمهم هذا على تزييف تاريخ العثمانيين الذين شربوا من الدم العربي حدّ الثمالة فكان لزاماً علينا التذكير بزيف وتحريف الإخونج، وسيجد القارئ الكريم أسفل هذه السطور بعض الروابط التي تفصّل حقبة الحكم العثماني.

فمن هو رجب طيب أردوغان؟

دعونا ننقل بأمانة الإجابة التي تحلو لتيارات الإسلام السياسي إطلاقها على الرجل لنضعها فيما بعد في ميزان الوقائع والتاريخ، ولن نخوض غمار التحليل حتى لا نتهم بالانحياز:

”ولد أردوغان في حي متواضع بإسطنبول في 26 شباط/فبراير 1954 لعائلة فقيرة متدينة، ودرس في مؤسسة دينية واشتغل كبائع متجول لدفع ثمن كتبه. تخرج من جامعة العلوم الاقتصادية في مرمرة في 1981. وفي 1976 انضم إلى حركة نجم الدين أربكان مرشده السياسي الذي تولى بعد سنوات من ذلك منصب رئيس الحكومة الإسلامية في تركيا. عُرف بدعمه للإسلام والمسلمين وأعاد لتركيا دورها الإسلامي وساند القضية الفلسطينية.“

هكذا يقدّمه جماعة ”الإخوان المسلمون“!

من جهتنا، سنقدم وقائع تاريخية ومعطيات حول أردوغان وحزبه سنترك تحليلها للقارئ الكريم:

- مع وصول أول حزب إسلامي للحكم في تركيا سنة 1996 تطوّر التعاون العسكري بين تركيا والكيان الصهيوني، وأقيمت أول تدريبات واسعة النطاق بين الجيش الصهيوني والتركي عبر مناورات جوية وبرية وبحرية في إطار اتفاقيتي التدريب في المجال الأمني والعسكري بين الطرفين.

- في مطلع سنة 2000 اصبحت إتفاقية التجارة الحرة ”التركية - الإسرائيلية“ سارية المفعول.

- منذ انتخاب أردوغان 2003 عرفت العلاقات-التركية الصهيونية استقراراً دام ست سنوات، أي حتى سنة 2009.

- بعدها قام أردوغان باستعراض خلال مشاركته في منتدى ”دافوس“ موجهاً انتقادات للسياسة الصهيونية في غزة، وطبّلت له قناة ”الجزيرة“ الإخونجية وكل أبواق الإخوان المسلمين، ولم يتساءلوا لماذا ذهب أردوغان إلى ”دافوس“ ولماذا قَبِلَ الجلوس مع بيريز أصلاً، بل تم تصويره على أنه بطلٌ وزعيمٌ لحركات التحرر ومدافعٌ عن المقدسات الإسلامية، ثم تلا ذلك استعراضات أردوغان فيما يعرف بأحداث سفينة ”مرمرة“ التركية وفك الحصار عن غزة.

- ما لا يعلمه العديد من الشباب العربي هو أن سفينة الحرية ”مرمرة“ التي انطلقت باتجاه غزة كانت ضد إرادة حزب أردوغان الذي منع نوّابه من المشاركة في وفد أسطول الحرية.

- كما أننا كان يمكن أن نعتبر أردوغان بطلاً لو قام بقطع العلاقات مع الكيان الصهيوني بعد مقتل تسعة من أفراد طاقم السفينة التركية، فالهيجان والصراخ والاستعراض لا يعنينا بقدر ما تعنينا الأفعال. فبدل قطع العلاقات مع الصهاينة قام أردوغان بتجميدها على بعض المستويات، وطالب دولة الاحتلال بالتعويض المادي والاعتذار..

العدد رقم (60) صدر في 1 آيار عام 2019 للميلاد

- كما أن تركيا لم تقم بطرد الملحق العسكري الصهيوني الذي ظل على رأس عمله، كما أن الملحق العسكري التركي في الكيان الصهيوني بقي على رأس عمله هو الآخر.

- فيما بعد، بينما كان أردوغان يستشيط غضباً من قرار إعلان القدس عاصمة للكيان الصهيوني نشرت محطة السي إن إن الأمريكية معلومة مفادها أن الشركة التي فازت بمناقصة بناء السفارة الأمريكية في القدس سنة 2018 هي شركة ليماك التركية.

- كما أن نجم الدين أربكان رئيس حزب الرفاه الإسلامي - الذي كان ينتمي له أردوغان- ورئيس تركيا آنذاك قَبِلَ أن يستقبله الصهاينة في القدس كعاصمة، وليس في "تل أبيب" سنة 1999، أي أن إسلاميي تركيا الذين كان أردوغان أحد أبرز وجوههم اعترفوا بالقدس عاصمة للصهاينة قبل تصريحات ترامب بعشرين عاماً..

- بينما يتناقل البعض بطولات أردوغان الخطابية والتي لا تتجاوز هز لسانه يمكن للمتابع أن يلاحظ حجم التبادل التجاري بين تركيا والكيان الصهيوني ومعدلاته: ارتفاع حجم التبادل بين تركيا والكيان الصهيوني من 2.7 مليار دولار سنة 2009 إلى 5.5 مليار دولار عام 2014 وارتفاعه بنسبة 14% عام 2017.

- لا يخفى على أحد الدور التركي بزعامة أردوغان في سورية والذي استحق عن جدارة لقب "لص حلب" حيث قام عن طريق مقاتلي جبهة النصرة وداعش عندما استولوا على جزء من مدينة حلب وريفها بتفكيك أكثر من ألف مصنع ووحدة إنتاج من مختلف الصناعات السورية وتمّ نقل المعدّات المفكّكة على شاحنات إلى تركيا تحت حراسة العصابات المسلّحة..

- كما أظهرت صور الأقمار الصناعية الروسية قافلات حاملات النفط تخرج من سورية من المناطق التي يسيطر عليها الدواعش باتجاه تركيا وأكّدت التقصيات أن ابن أردوغان هو الذي كان يقوم باستلام هذه الشحنات ليتم بيع هذا النفط بثمن بخس إلى الكيان الصهيوني.

- ولا داعي للحديث عن عضوية تركيا في حلف الناتو والعلاقات الاستراتيجية مع الولايات المتحدة الأمريكية العدو الرئيسي لكل أحرار العالم.

- بالنسبة لما يسميه البعض "المعجزة الاقتصادية التركية"، ومن بين الحقائق الخفية، إضافة إلى تزوير المواقف السياسية، نجد مثلاً أنّ عدد الأتراك المهاجرين في ألمانيا وحدها يبلغ حوالي ثلاثة ملايين ونصف المليون، كما ذكر تقرير دايتن 2016، الصادر بعنوان التقرير الاجتماعي للجمهورية الفيدرالية الألمانية، أن 36 بالمئة من الأتراك في ألمانيا يعيشون تحت خط الفقر.

- ساهمت الأزمات الاقتصادية المتتالية في تركيا، بإحداث قحط شديد في الفرص الاقتصادية، مما اضطر الكثير من الأيدي العاملة التركية إلى ترك وطنهم والهجرة إلى بلاد أخرى، لتأمين قوت يومهم والحصول على مستوى رفاهية أفضل.

- كانت اتفاقية أنقرة المبرمة عام 1963، بين تركيا والاتحاد الأوروبي، بمثابة البوابة التي فُتحت لاستقبال مئات الآلاف من الأيدي العاملة التركية، واستناداً إلى تقارير الأمم المتحدة الذي نشرت تحت عنوان "التوزيع الجغرافي للأيدي العاملة التركية حول العالم نجد: (الدنمارك: 33 ألف مهاجر- مقدونيا: 73 ألف مهاجر - إيطاليا: 21 ألف مهاجر - فرنسا: 300 ألف مهاجر)، بالإضافة إلى (كندا: 27 ألف مهاجر - الولايات المتحدة: 110 ألاف مهاجر - الكويت: 12 ألف مهاجر - الإمارات العربية: 45 ألف مهاجر - المملكة العربية السعودية: 102 ألف مهاجر...).

- الدعم الاوروبي كان لتثبيت موقع تركيا كحليف عضو في حلف الناتو داعم للمشاريع الإمبريالية في المنطقة لا غير، وكان النظام التركي يسعى إلى أن يحظى بالقبول كعضو في الاتحاد الأوروبي، ولكن من دون جدوى، على الرغم من التنازلات الجسيمة التي قدّمها في التفريط في الثوابت الأخلاقية الإسلامية في المنظومة القانونية لتركيا كنشر الخمارات والتسامح مع الإباحية والمثلية وكل ما تمليه المواثيق الإمبريالية..

- إن دحض هذا السراب الذي صنعته الميديا العربية الإخونجية يستوجب الكثير من الحديث بالنسبة للكثيرين ممّن تمّ قصف عقولهم إعلامياً، ولمن يرغب في المزيد من التفاصيل والبراهين نورد بعض المراجع الإضافية :

http://ar.mideastyouth.com/?p=15962
https://www.aztagarabic.com/archives/9623
http://newsmaghreb.info/index.php/2013-06-10-13-27-41/9349-2015-11-02-20-32-24.html
https://d.facebook.com/Egy.Nasser/photos/a.2138484686376278/2138484756376271/?type=3&__tn__=%2AW-R

- تقرير مكتبة الكونغرس عن دور تركيا في 2003 لغزو العراق، تقرير شامل موثق يوضّح دور تركيا في غزو العراق :
http://congressionalresearch.com/RL31794/document.php…

الصفحة الثقافية: (غداً نلتقي) دراما الحرب والقهر
طالب جميل

في سنوات الحرب على سورية أُنتجت الكثير من الأعمال الدرامية التي سلطت الضوء على آثار الحرب النفسية، والتحولات الاجتماعية التي حدثت داخل المجتمع السوري نتيجة ما تركته تلك الحرب من ألمٍ وحزنٍ وتهجيرٍ وفقدان أملٍ واحتقاناتٍ وانقساماتٍ وفقرٍ ورغبةٍ في الخلاص.

قسوة الحرب ومأساة الهجرة واللجوء وحلم الهجرة إلى أوروبا، والبحث عن أفقٍ من قلب مشهدٍ مليءٍ بالألم والعذاب هي العناوين الرئيسية التي حاول مسلسل (غداً نلتقي) الذي عرض عام 2015 تناولها والتركيز عليها، فكان عملاً مختلفاً بكل المقاييس وتميز عن باقي الأعمال الأخرى التي تناولت موضوع الحرب، فكان أقرب للواقع وأصدق وغطى الجانب المظلم من حياة الناس الذين اضطروا لترك بلدهم نتيجة الحرب.

مجموعة لاجئين سوريين بينهم مواطن فلسطيني وابنه يعيشون في مبنى مدرسة بغرف رثة متلاصقة في لبنان، يمثلون شريحةً مهمةً من المجتمع السوري بينهم المعارض والموالي، المثقف والأمي، المتطرف والمنفتح، المتصالح مع نفسه والناقم على نفسه وعلى المجتمع، العاقل والمجنون، العدائي والمسالم، الانتهازي والطيب، لكن همومهم مشتركة وأحلامهم مشتركة ورغبتهم بالخلاص من واقعهم المر هدفٌ مشتركٌ أيضاً.

العدد رقم (60) صدر في 1 آيار عام 2019 للميلاد

القصة الرئيسية في العمل تدور حول أخوين مصابين بمرض السكري بحكم الوراثة ويعيشان في غرفة واحدة، أحدهما (محمود / عبد المنعم عمايري) مثقف وكاتب مقالات يسمي نفسه معارضاً للنظام في سورية ومؤيداً لما يسمى بـ (الثورة)، والآخر (جابر / مكسيم خليل) يعمل بائعاً متجولاً للأقراص المدمجة يُصنف بأنه موالٍ ورافضٌ لفكرة الثورة، وفي غرفة مجاورة لهما تعيش فتاة ثلاثينية جميلة وعفوية (وردة/ كاريس بشار) تعمل في غسل الموتى تحب في البداية محمود وتتعلق به وترفض الزواج من (أبو رياض/ فوزي بشارة) المسؤول عن تأجير الغرف من أجله، لكنها تكتشف في وقت متأخر أن (جابر) يحبها ومتعلق بها ويحاول فعل أيِ شيءٍ من أجلها.

وفي خضم تلك اليوميات التي تعيشها شخصيات العمل تظهر الخلافات والتراكمات النفسية التي خلّفها اللجوء على كل شخصية، فالكل يصارع من أجل البقاء والكل يلهث من أجل الحصول على لقمة للعيش في بلدٍ تصعب فيه الحياة يوماً عن يوم، والكل يحاول أن لا يمرض كي لا يضطر للذهاب إلى المستشفى لأنه لا يملك تكاليف العلاج، والكل محاصر بالماضي لكنه يخاف من المستقبل، والكل يحلم بالسفر بأي طريقة والهروب من هذا الواقع البائس حتى لو على ظهر قاربٍ مهترئٍ معرضٍ للغرق، والكل يدفع ضريبة الوجع وفقدان الوطن في كل لحظة، ونتيجة لذلك يتألم كلُ واحدٍ منهم حيناً ويحب حيناً ويقسو في أحيانٍ أخرى.

تكره وردة فيروز ولكنها تضع أغنية احكيلي عن بلدي كرنّة لهاتفها، ويحلم محمود باللحاق بزوجته التي سبقته إلى الولايات المتحدة لكنه يرتب لمصيرٍ تراجيدي يُنهي تلك الحياة التي يعيشها، ويحب جابر وطنه لكنه يخاف العودة كي لا يلتحق بالخدمة العسكرية ويُقتل على أيدي الجماعات التكفيرية، ويحاول (أبو عبده / عبد الهادي الصباغ) التعبير عن ضياعه بإقناع نفسه بأن تلك الجماعات التكفيرية تحاول أن تقيم الدين والعدل على الأرض لكنه يلقى مصيره في الرقة على أيدي تلك الجماعات أثناء محاولته اللحاق بابنه الذي هرب إلى هناك لإقناعه بالعودة، فيما يعيش الفلسطيني (أبو ليلى/ تيسير إدريس) على أطلال وذكريات الحرب في العام 1982 عندما كان يقاتل في صفوف التنظيمات الفلسطينية، فيكتفي بالتعبير عن إحباطاته بشرب الخمر وسرد الذكريات والسخرية من الواقع، أما ابنه (جيفارا/ جابر جوخدار) فيكره والده الذي يعتبر أنه حرَمَه من كل شيء نتيجة إسرافه في ملذاته فيحاول عبر فرقة الدبكة الفلسطينية التي أسسها أن يهرب إلى بلدٍ أجنبيٍ يغطي نقصه بالحصول على جنسية وجواز سفر "محترم".

شخصيات مضطربة أدى بها فعل الحرب إلى هذا المصير المضطرب، كانت لها بيوتٌ ومصالحُ وأشغالٌ وكانت تعيش مع عائلاتها في أمنٍ وسلام، وجدت نفسها وبفعل الحرب أنها صارت عبارة عن أرقام في إحصائيات الأمم المتحدة والمنظمات الدولية، وتحاول الوصول إلى رفاهية استلام المعونة أو تغطية تكاليف العلاج أو أخذ حصتها من الطعام والشراب.

كان لكاتب المسلسل (إياد ابو الشامات) الدور الأكبر في تقديم حكاية هؤلاء الناس وصياغة أحداث المسلسل بطريقة تعكس واقع حياة المهجرين رغم قسوة التعابير والأوصاف في بعض المحطات، وكان لمخرج العمل (رامي حنا) المساهمة المهمة في إدارة العمل بطريقة مثيرة أبرز فيها الجانب المظلم في حياة هذه الشريحة من الناس عبر الإضاءة الباهتة التي تعبر من جهة عن كثرة انقطاع الكهرباء في لبنان ومن جهة أخرى عن قتامة مشهد اللجوء وبؤس الحياة، كما وزّع الموسيقى التصويرية الحزينة التي ألفها (فادي ماردينى) على مختلف مشاهد العمل، إضافة إلى براعته في الانتقال المفاجئ من بيروت إلى باريس والقفز بالحكاية من مكان إلى آخر دون أن يؤثر على ذلك على المتعة والدهشة المقدمة في العمل.

الشخصيات الرئيسية في العمل أدت أدواراً استثنائية على مستوى التمثيل، خاصة (عبد المنعم عمايري) الذي برع في تقديم دور مختلف معقّد ومركّب واستغل طاقاته وقدراته لصالح الدور، فاستطاع أن يقنع ويبهر ويتفوق، أما (كاريس بشار) فاستطاعت من خلال الشخصية التي قدمتها في العمل إبراز طاقتها عبر العفوية والتلقائية من خلال قدرتها الفائقة على السخرية والمزج بين التناقضات فعبر الدمعة والضحكة وعبر الإصرار واليأس والفرح والألم كانت تستغل تلك المساحة في بعض المشاهد المؤثرة فكانت تضحك قرب جثة ميت وتبكي ليلة العرس وتكره من يحبها وتحب من يهملها ويوجعها، أما باقي نجوم العمل فتركوا بصمة مهمة من خلال الأدوار التي برعوا في تقديمها في هذا العمل.

العدد رقم (60) صدر في 1 أيار عام 2019 للميلاد

رغم الإيقاع البطيء للأحداث في العمل، والظلام الذي سيطر على أغلب مشاهد المسلسل، وبعض الألفاظ التي لم يعتد المشاهد العربي على سماعها في الأعمال التلفزيونية تحديداً، والرتابة التي ظهرت في بعض المحطات من العمل، إلا أن العمل بشكل عام قُدم بشكلٍ إنساني صادقٍ بعيدٍ عن الاستعراض في الآراء السياسية وعن مشاهد القتل والدمار، وعبّر عن التناقض في الآراء والأفكار بين المواطنيين السوريين بشكل واقعي، واستطاع التعبير عن التراكمات والآثار النفسية للحرب على الناس وتأثيرها على مسار حياتهم وقرارتهم وقدرتهم على التعاطي معها وفق مستجدات الحرب بشكل معبر ومنطقي.

ورغم النهايات التراجيدية لشخصيات العمل التي تمثلت بانتحار (محمود) بعد أن ضاق ذرعاً بالحياة نتيجة المرض والقهر، ووفاة (جابر) في أرض الغربة نتيجة المرض، وإعدام (أبو عبده) في الرقة، وسفر وردة إلى فرنسا إلا أن الحياة استمرت بكل قسوتها، فغرفهم التي تركوها تم تأجيرها للاجئين جدد، وأرواحهم ظلت تبحث عن نافذة أمل للهروب من مأساة الحرب والقهر وهي لوحة من لوحات المعاناة في الحرب التي شُنت على سورية منذ عام 2011.

اللغة الأم أساس التنمية الشاملة – الجزء الأول

محمد عبد العظيم*

إن البحث في اللغة والتنمية هو نظرٌ في علاقة اللغة بالإنسان، هو بحثٌ في أصول ومرجعيات المفكرين، إنه نقدٌ للأوضاع بل نقدٌ لوصف تلك الأوضاع لأن كل منظومة لغوية هي انعكاس لمنظومة فكر المتكلمين بها وثقافتهم وتصوراتهم، ولذلك تعد المسألة اللغوية مسألة ابستمولوجية في نظامها وآليات إنتاجها، حسب عبارة بنفنيست لمّا تأمل في البحث في المسألة اللغوية فلقيه ممتداً شاملاً ينطلق من ظاهرة لينظر في ظواهر أو في مسألة فيجد نفسه في إشكاليات من اللغة إلى الفكر ومرجعياته إلى الأوضاع ووصفها إلى الثقافة والتصورات مما يعيد إلى المسألة المنطلق "اللغة" لتكون عن جدارة في مجال الفلسفة والمجال المعرفي الفكري في أدق مفاهيمه وأعسرها.

وليس موضوعنا أقل عسراً من ذلك وليس له أن يكون ما دام هو منه بل في صميمه وصلبه. فعنوان ورقتنا جامع لثلاثة عناصر بالتصريح أو بالإحالة هي: اللغة والتنمية والإنسان الذي تحيل إليه لفظة "الأم". والعلاقة بين الثلاثة قد يصعب وصفها وتحديدها لما بين مكوناتها من تواصل يصل حد اللبس وتداخل يعكس أوجهاً من التشابك لا تبيح الفصل بينها إلا مقتضيات المنهج. فالإنسان هو المحور وهو الفاعل والمفعول في آن، إنه المتفرد بالنطق بين الخلق أي محدث اللغة دون شريك، وهو صانع التنمية أو نقيضها اللذين عليه انعكاسهما بوجهيه. فهو الكائن الجدلي الأوحد عند البعض أي المؤثر والمتأثر في آن. اللغة أداته والتنمية فعله وغايته ...والعناصر ثلاثة أثافٍ لا يستقيم انتصاب قدر المجتمع بغير واحدٍ منها....

إن هذا الضرب من العلاقة يقتضي الوقوف أولاً أوان البحث عند مسائلَ أو مبادئ نظريةٍ عامةٍ تروم تفصيل تلك العلاقات أو على الأقل تحديدها ليتجلى المسار وتبين الطريق.

العدد رقم (60) صدر في 1 آيار عام 2019 للميلاد

1- مبادئ نظرية عامة:

- اللغة \ الإنسان

الثنائي الأساسي، الفاعل والمفعول به وأداة الفعل التي هي منه أساس كيانه وفرادته وتميّزه. فالإنسان يتشكّل من حيث هو ذات في اللغة وباللغة إذ هي وحدها التي تؤسس في حقيقة الأمر مفهوم الأنا ضمن واقعها الذي هو واقع الوجود... فيكون "أنا" أنت يقول "أنا". ههنا نجد أساس "الذاتية" التي تحدّد بواسطة المنزلة اللغوية "للشخص" (بنفنيست).

إن كانت تلك نظرة اللغوي فإن الفلاسفة هم المؤهلون للوقوف على دقّة العلاقة بين الاثنين، فهم يتجاوزون سريعاً اعتبار اللغة أداة يملكها المتكلم ويتحكم فيها أو بها، فيقول هايدغر ذلك صراحة "اللغة ليست مجرد أداة يملكها الإنسان إلى جانب غيرها من الأدوات وإنما هي بوجه عام وقبل كل شيء ما يضمن إمكان الوجود وسط موجود ينبغي أن يكون موجوداً منكشفاً. وهناك فقط حيث توجد لغة يوجد عالم "تاريخ". ليست اللغة أداة طيعة بل على العكس – هي هذا التاريخ نفسه الذي يتصرف في الإمكانية العليا لوجود الإنسان".

وكان لا بد للفكر، بعد الوقوف على دقة هذه العلاقة، أن ينظر لأي أوجهها وأشكال تمظهرها فيراها البعض في خطورة الوظيفة اللغوية. فهي عند نيتشه مستودع عالم الإنسان الخاص به إلى جانب العالم الآخر، وبقدرات الأول فقط يمكن كشف كوامن الثاني فيكون الإنسان عندئذ سيداً عليه لأنه بامتلاكه قد ملك أسمى درجات العلم بالأشياء وبذلك فتح الطريق إلى اكتساب العلم...

ليست هذه المواقف مجرد إفراز لنظريات الفلسفة الغربية الحديثة بل إنها قد تجد إثباتها في تراثنا العربي الإسلامي في أجلى صورة. ففيه ما يؤكد أن اللغة ليست مجرد أصوات للتعبير لها صدى عند متلقٍ ما، بل هي مركز الوجود الإنساني ذاته. فاللغة كما جاء في القرآن قد ميزت آدم عن بقية المخلوقات بأن خصه الله بالمعرفة إذ "علمه الأسماء كلها". وما الأسماء إلا صياغة لأصوات اللغة وبذلك تكون اللغة هي مركز المعرفة والسبيل إليها التعليم "علمه"، ويبدو أن الأمر كذلك في كل الرسالات، والتعليم من وسائله القراءة. وهي أول أمر تلقاه رسول الإسلام من ربه لتكون أمته أمة قارئة حتى تخرج من حال الأمية إلى حالة القدرة على القراءة سبيل العلم نقيض الجهل الذي أريد تجاوزه. وهو ما تجسد عبر تاريخ الأمة وحضارتها حتى بلغت مرحلة السيادة الكونية في مرحلة من تاريخها. وما السيادة على الكون حضارياً إلا هدف التنمية وغايتها. وتكون التنمية شاملة حين تعم المجالات العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية جميعها وهي ما يجمع تحت عنوان "التنمية الشاملة" غاية التنمية البشرية. وقد يكون اختيار اسم كتاب الإسلام مشتقاً من فعل القراءة "القرآن" منتهى بيان القصد ودليل بعد المقصد وسبيله. فاللغة تكون بذلك عنوان اكتمال الجنس البشري وتميزه حين تكون لغة المعرفة المنشود دينياً واجتماعياً وترتفع عن المستوى الفردي الذاتي لتكون أداة بناء مجتمعي وحضاري عام...

وكذا تكتسب اللغة بعدها الاجتماعي العام، ويبرر الحديث عن اللغة القومية بدل اللغة الفردية. وقد اجتهد الباحثون قديماً وحديثاً في تحديد العلاقة بين اللغة وقومها فرآها فوسلير "وطناً روحياً يؤوي من حُرم وطنه على الأرض"، وكذلك رآها أيضاً روسكين ودقق الوصف والتحليل ليبين وجه الشبه بأن قال في المنزل "إنه مكان للسكينة والسلام والمأوى ليس فقط من كل أذى أو ضرر ولكن من كل رعب أو شك أو انقسام وبقدر ما يفتقر إلى هذه الصفات لا يصبح منزلاً، وبقدر ما تتغلغل مخاوف الحياة الخارجية إليه ...لا يصبح البيت بيتاً ويكون حينها جزءاً من العالم الخارجي".

ولا يخفى ما تحمله هذه الرؤية من تحديد لمتانة العلاقة التي تحيل حتماً على تحمل المسؤولية ما دام العاقل في كل حال مسؤولاً عما هو له والمنزل دون شك من مسؤولية آهليه... وقد تجاوز البحث ذلك بعد أن أثبته، إلى النظر بدقة في مكامن العلاقة الوطيدة والدقيقة بين الإنسان ولغته بما يتجاوز الآراء العامة إلى المسائل الفرعية، فوقفوا بذلك عند علاقة اللغة بالثقافة ثم بالفكر لمزيد التدقيق. وقد رأى اللسانيون ذلك في اللغة ذاتها فقال دوسوسير "إن اللغة إذا ما نظرنا إليها من كل جوانبها كائن متعدّد الألوان مختلط العناصر. فهي على مفترق الطرق بين عدة ميادين: الفيزيائي والفزيولوجي والنفسي، وهي تنتمي إلى المجال الفردي وإلى المجال الاجتماعي ولا تقبل أن تصنّف ضمن أية مقولة من الوقائع الإنسانية لأننا لا نعرف كيف".

العدد رقم (60) صدر في 1 أيار عام 2019 للميلاد

ولما كانت الغاية البحث الدقيق في أساس الكفاءة اللغوية عند الإنسان تبين أن الأمر يعود في أساسه إلى ملكة ينفرد بها الكائن البشري هي ملكة الترميز فقيل "إن ملكة التمثيل الرمزي لدى الإنسان هي المنبع المشترك للفكر واللسان والمجتمع". وتلك الملكة المميزة هي عند البعض أساس الوظائف المفهومية، بل إن الفكر ذاته ليس في جوهره إلا القدرة على إنشاء تمثيلات للأشياء... وهي في جوهرها قدرة رمزية. ويؤكّد البحث اللساني الفلسفي كما جاء عند بنفنيست "أن الملكة الرمزية لدى الإنسان تبلغ تحققها الأعلى في اللسان الذي هو التعبير الرمزي المتميز... والرمز اللساني متوسط لأنه ينظم الفكر ويتحقق في صورة خاصة كما أنه الرمزية الأكثر اقتصادية لأنه لا يتطلب أي مجهود عضلي ولا يقتضي أي انتقال جسمي ولا يفرض أي عناء يدوي.

أما علاقة اللغة بالفكر فيعيدها ج. مونان إلى تعريف للغة يعود إلى أكثر من ألفي سنة يرى "أن اللغة في المقام الأول هي التعبير عن الفكر الذي هو مقابل للغة وسابق عليها". ويحكم مارلوبنتي بأن "الفكر ليس باطنياً ولا وجود له خارج العالم وبعيداً عن الكلمات... والحياة الباطنية لغة باطنية... تتشابك المعاني الموجودة وفق قانون مجهول فيشرع كائن ثقافي جديد في الوجود فيتكون الفكر والتعبير في آن واحد عندما يتعبأ محصولنا الثقافي لخدمة هذا القانون المجهول". وقد أجمل "لاكان" هذه الفكرة بشكل أكثر دقةً ووضوحاً إذ قال: "إننا لا نفكر إلا داخل الكلمات... وكل رغبة في التفكير بدون كلمات محض محاولة خرقاء لا أصل لها... تعطي الكلمة للفكر وجودا أكثر سمواً وتأكيداً".

ويذهب المفكرون في تتبعهم للأمر إلى أبعد من ذلك بحثاً في صلة اللغة والفكر حتى تبين بعضهم أن الإنسان ينتج اللغة حتى قبل أن يتكلم فهو عند فخر الدين الرازي "إذا جلس في الخلوة وتواترت الخواطر في قلبه فربما صار بحيث كأنه يسمع في داخل قلبه ودماغه أصواتاً وحروفاً خفية فكأن متكلماً يتكلم معه... فقالت الفلاسفة إن تلك الأشياء ليست حروفاً ولا أصواتاً وإنما هي تخيلات الحروف والأصوات وتخيل الشيء عبارة عن حضور رسمه ومثاله في الخيال". ويكاد يكون الأمر ذاته عند اللسانيين المحدثين كما يبدو في قول بنفنيست "إن ما يمكننا قوله هو الذي يحدد ما يمكننا تعلقه وتنظيمه، إن اللسان هو الذي يمدنا بالشكل الخارجي الأساسي للخاصيات التي يعترف بها الفكر للأشياء".

وعند تجاوز مستوى الملكة ومسألة انبثاق الكلام في ذات الإنسان ودخول البحث المجال الاجتماعي العام يتكشف أن اللغة واسطة أساسية بين الإنسان والعالم وبين الإنسان والإنسان لأنها الجهاز الرمزي الضروري الذي جعل الفكر واللسان ممكنين "فحين نضع الإنسان في علاقته بالطبيعة أو في علاقته بالإنسان من خلال وبواسطة اللسان فإننا نضع المجتمع... لأن اللسان يتحقق دوماً في لغة، في بنية لسانية محددة وخاصية غير منفصلة عن مجتمع محدد وخاص... ولا يمكن تصور المجتمع واللغة أحدهما بدون الآخر. كلاهما معطى... إن اكتساب اللغة تجربة تسير بمحاذاة تشكّل الرمز وإنشاء الموضوع لدى الطفل، إنه يتعلم الأشياء من خلال أسمائها... ولكنه يكتشف أن له هو ذاته اسماً وأنه من ثمة يتواصل مع محيطه ويولد عنده الشعور أو الوعي بالوسط الاجتماعي الذي يسبح الذي يحول تدريجياً نفسه وفكره بواسطة اللسان" (بنفنيست).

وعندما نتجاوز كذلك مستوى اللغة ندخل حتما مستوى اللسان بما يعنيه من تعدد الألسن باعتبار اختلاف الأقوام والأمم. وعندئذ تطرح بحدّة مسألة علاقة اللسان بأهله وفاعلية كل منهما في الثاني. وتلك مسألة يكاد يكون الاتفاق بشأنها عاماً وجامعاً منذ العصور القديمة. فقد أدرك علماء العرب العلاقة الجدلية بين طرفي المعادلة منذ قرون فقال ابن حزم "إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم أو بنقلهم من ديارهم واختلاطهم بغيرهم،

فإنما يفيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم. وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود علومهم. هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة". وقد أكد ابن خلدون ذلك بقوله "اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختلطين بها". ولما كان ذلك كذلك لم تكن العربية استثناء منه لأنها كسائر اللغات كائن اجتماعي حي تسري عليه سنن التطور والتجديد ويتوقف عليه بقاؤها.

وتلك السمات الطبيعية هي التي تبرر واقع اللسان العربي في عهدنا. وهو واقع يكاد يقع الإجماع على أنه ليس على الحال التي يرومها أهله وهم يتحفزون للتطور وينشدون التنمية الشاملة. وتكاد المخاطر تتجسّد في الإزدواجية اللغوية والتعدّد اللغوي الذي يرفده إيمانٌ خاطيء بضعف اللغة القومية وعجزها عن مواكبة التطور العلمي والمعرفة عامة... فاللغات الأجنبية عند البعض منا هي وسيلة التقدم والرقي الثقافي والعلمي، أما العربية فلغة الدين والشعر والأدب الذي هو من مشاغل النخبة الحالمة بأمجاد الماضي.

وإذا التقى ذلك مع الوعي بأن اللغة هي وسيلة الحركة الإنسانية والفاعل الأساسي في جميع مجالات العلم والمعرفة والثقافة والإعلام والتربية... وأن النشاط الإنساني يتوقف بتراجع اللغة، لينقطع التواصل والتفاهم، نتبين خطورة الأمر وأثره الفعال القاتل في مسار التنمية وانعكاسه الأكيد على بناء الشخصية القومية والسياسة التعليمية عندنا لأن اللغة هي أداة تراكم التجارب والمعارف. ومن ثم فإن تقدم الإنسان في جميع جوانب الحياة شاهدٌ على تقدم اللغة وهذا ما دفع اللغويين والدارسين إلى اعتبار "اللغة الأساس الصلد الذي تقوم عليه قصة الأمة". وحينئذ يطرح بحدة واقعنا العربي بكل سماته للنظر في أدوائه وسبل علاجه من وجهة اعتبار الأداة اللغوية خاصة.

- اللغة\التنمية:

تثبت الدراسات في المجالين الاجتماعي والاقتصادي العلاقة المؤكدة بين التنمية بمفهومها الشامل وأداة التواصل بين مكونات المجتمع التي هي اللغة خاصة أن المجتمعات في العصر الحديث هي أساساً "مجتمعات المعرفة" أي أن عصب الاقتصاد فيها لم يعد الزراعة والصناعة البدائية أساساً وإنما امتلاك المعلومات العلمية والتقنية. فهي التي توظف في الإنتاج والإدارة. ويعد هذا المنهج السبيل الأساسي لتحقيق التنمية في جميع المجالات. ولا شك حينئذ في أن تكون وظيفة اللغة محورية في بناء مجتمع المعرفة لما توفر لها من إمكانات تؤهلها للقيام بتلك المهمة دون سواها منها أنها واسطة تبادل المعلومات ونقل المعرفة بين أفراد المجتمع كما أن اللغة هي وسيلة التفاهم المشتركة بين المشاركين في عملية الإنتاج في مؤسسات الإنتاج حيث العمل مشترك.

واعتباراً لما ثبت من علاقة بين التنمية والمعرفة في المجتمعات الحديثة تأكدت ضرورة التنمية اللغوية كأول خطوة على طريق التنمية الشاملة. فالمعرفة بمعناها الواسع تعتمد أساساً على اللغة حيث تتجاوز اللغة عندئذ وظيفتها الأولى باعتبارها مجرد أداة للتواصل والتعبير عن الفكر والثقافة لتصبح أداة أساسية في توليد المعرفة وتطويرها ثم نشرها عن طريق التواصل ...وما دامت المعرفة قد اتخذت بعداً اقتصادياً كان لا بد للغة أيضاً أن تتخذ هذا البعد وتصبح عنصراً اقتصادياً أساسياً لأن المعرفة أصبحت صناعةً وأساساً من أسس النمو الاقتصادي. ومن شأن هذه المنزلة الجديدة للغة أن تمنحها أهميةً أكبر لأنها أضيفت إلى أبعادها الفكرية والثقافية والحضارية التي هي لها أصلاً.

ثم إن تحقيق تنمية المعرفة يعني تحقيق التنمية الشاملة لأن مجتمع المعرفة يقوم بنشرها بعد إنتاجها ثم توظيفها في مختلف المجالات الاجتماعية، فيكون النمو شاملاً عاماً على كل فئات المجتمع.

إن هذه العلاقة هي التي جعلت الباحثين يصوغون أحكامهم بأسلوبٍ تقريري مؤكدٍ ليرسّخوا أن ما يعرفه العالم من تطور متواتر وتغير سريع وتحولات هامة وحثيثة في جميع المجالات هو أساساً قائمٌ على اللغة ولذا تأكد أن كل نظام جديد منشود في أي بلد أو أمة كما في مستواه الكوني لا بد أن يكون محوره المشروع اللغوي لأن اللغة على حد عبارة البعض "هي الحامل الأكبر للمنتج الثقافي والجسر الأعظم للمسوق الإعلامي والسيف الأمضى في الاختراق النفسي".

العدد رقم (60) صدر في 1 أيار عام 2019 للميلاد

قصيدة العدد: في رثاء بغداد/ الحنفي الواعظ *

عنـدي لأجـل فراقكـم آلامُ ... فـإلام أعـذل فيكـم وألام
مـن كان مثلـي للحبيـب مفارقـاً ... لا تعذلـوه فالكـلام كـلام
نعـم المساعـد دمعـي الجـاري ... علـى خـدي إلا أنـه نمـام
ويذيـب روحـي نـوح كل حمامـة ... فكأنمـا نـوح الحمـام حمـام
إن كنـت مثلـي للأحبـة فاقـداً ... أو فـي فـؤادك لوعـة وغـرام
قـف فـي ديـار الظاعنيـن ونادهـا ... يـا دار مـا صنعـت بـك الأيـام
أعرضـت عنـك لأنهـم مـذ أعرضـوا ... لـم يبـق فيـك بشاشـة تستـام
يـا دار أيـن الساكنون وأيـن ذيـاك ... البهـاء وذلـك الإعظـام
يـا دار أيـن زمـان ربعـك مونقـاً ... وشعـارك الإجـلال والإكـرام
يـا دار مـذ أفلـت نجومـك عمنـا ... والله مـن بعـد الضيـاء ظـلام
فلبعدهـم قـرب الـردى ولفقدهـم ... فقـد الهـدى وتزلـزل الإسـلام
فمتـى قبلـت مـن الأعـادي ساكنـاً ... بعـد الأحبـة لا سقـاك غمـام
يـا سـادتي أمـا الفـؤاد فشيـق ... قلـق وأمـا أدمعـي فسجـام
والـدار مـذ عدمـت جمـال وجوهكـم ... لـم يبـق فـي ذاك المقـام مقـام
لا حـظ فيهـا للعيـون وليـس لـلأ ... قـدام فـي عرصاتهـا إقـدام
وحياتكـم إنـي علـى عهـد الهـوى ... بـاقٍ ولـم يخفـر لـدي ذمـام
فدمـي حـلال إن أردت سواكـم ... والعيـش بعدكـم علـي حـرام
يـا غائبيـن وفـي الفـؤاد لبعدهـم ... نـار لهـا بيـن الضلـوع ضـرام
لا كتبكـم تأتـي ولا أخباركـم ... تـروى ولا تدنيكـم الأحـلام
نغصتـم الدنيـا علـي وكلمـا ... جـد النـوى لعبـت بـي الأسقـام
ولقيـت مـن صـرف الزمـان وجـوره ... مـا لـم تخيلـه لـي الأوهـام
يـا ليـت شـعري كيـف حـال أحبتـي ... وبـأي أرض خيمـوا وأقامـوا
مالـي أنيـس غيـر بيـت قالـه ... صـب رمتـه مـن الفـراق سهـام
والله مـا اختـرت الفـراق وإنمـا ... حكمـت علـي بذلـك الأيـام

هـو الشـيخ أبـو المناقـب شـمس الديـن محمـود بـن أحمـد بـن عبـد اللـه بـن داود ابـن محمـد بـن علـي الهاشـمي الحارثـي الكوفـي الشـهير بالحنفـي الواعـظ، وكان أديبـاً وشـاعراً وعالِمـاً، ولـد فـي بغـداد عـام 623هـ/1226م، وتولـى التدريـس بالمدرسـة التتشـية، وخطـب فـي جامـع السـلطان، ووعـظ فـي بـاب بـدر.

كان يعتبـر مـن أبـرز علمـاء بغـداد وأكثرهـم غنـىً ومنزلـة، ولـه مناقـبُ كثيـرةٌ ومـن أبرزهـا قيامـه بشـراء الأطفـال الأسـرى العباسـيين مـن المغـول بعـد سـقوط بغـداد علـى يـد هولاكـو، ولقـد أنفـق عليهـم وقـام بتربيتهـم ورعايتهـم، ولـه قصائـدُ حزينـةٌ باكيـةٌ فـي نكبـة بغـداد، عـام 656هـ، منهـا هـذه القصيـدة (فـي رثـاء بغـداد).

العدد رقم (60) صدر في 1 آيار عام 2019 للميلاد

كاريكاتور العدد

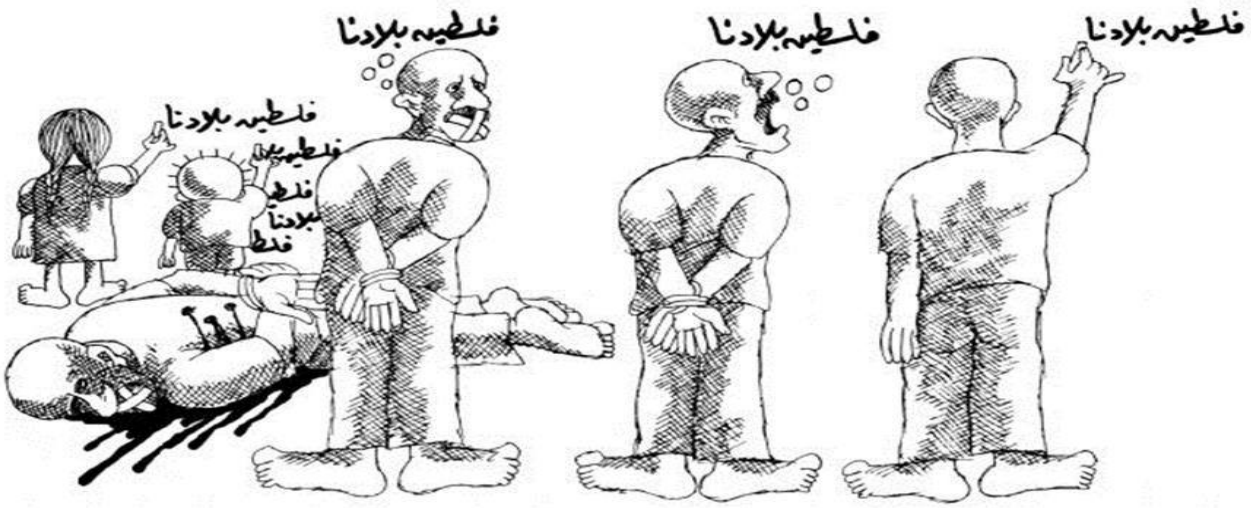

انتهى العدد